شباب
النادي الشبابي

يوسف العظم

تاريخنا

مسرحي

بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ولدي الغالي جـــــــــــــهاد حفظه الله

هـــــذه بعـــــض ثمـــــرات العقيـــــــــدة الإســـــلامية المباركـــــة التـــــي أكرمنـــــــي الله بـــالتشرف بـــها ، والفكـــر الإســـلامي الســـــــوي الذي أكرمنـــــي الله بالانتمـــاء إليـــه .

والدك

يوسف العـــظم

٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ

١٥ تشـــرين الأول ١٩٩٨ م

النادي الشبابي

تاريخنا

بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٦٦ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزيع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

تاريخنا

بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء

تأليف
يوسف العظم

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾

بين يدي الكتاب

لعل الدافع الخفي لتأليف هذا الكتاب أو البحث في موضوعه، ما يكمن في أعماقي من مرارة تنتابني بين الحين والآخر حين أتذكّر أني كنتُ أقرأ على مقاعد الدراسة الابتدائية تاريخ العصور القديمة لـ(بريستد) ثم تاريخ الدول الأوروبية على مقاعد الدراسة الثانوية، وكان تاريخ أمتي يُقرأ في الأربعينيات شرائح ممزقة، ونبذاً غير متماسكة ولا متكاملة، حتى لا توحي لي هذه القراءة بعظمة أمتي وروعة حضارتها وقدرة أبنائها على الإبداع والعطاء على مر العصور.

لقد كنت أعرف بالتفصيل كثيراً مما كان يجري في العصور القديمة ـ حجرية وحديدية ونحاسية وبرونزية ـ، وكنت أتابع الإنسان منذ القدم وفق النظرية الأوروبية للتاريخ البشري، مقابل معلومات سطحية ساذجة عن أسماء بعض الصحابة، وأحداث بعض المعارك وانتصارات المسلمين في ميادين الفتح، وكنا نعرف الكثير عن «حملة نابليون وأثرها على النهضة الحديثة في بلادنا»، وعن «الماجناكرتا الإنجليزية وأثرها في مطالبة الشعوب بالتحرر»، وعن «الثورة الفرنسية وشعاراتها الثلاثة: الإخاء والمساواة والحرية»!.

وتقدمتْ بي الأيام فوجدت الكارثة أكبر والمأساة أدهى وأمر، وأنا أبحث في الكتب وأقرأ ما بين السطور لأرى أن عملية تزوير رهيبة تجري في حياتنا القديمة والحديثة، وأن دولاً كبرى وأجهزة ضخمة ومؤسسات متخصصة، وأقلاماً مأجورة ووسائل إعلام مسخَّرة مغرضة تسهم في هذه

العملية المنكرة؛ لتقدم لنا التاريخ مشوَّهاً، وتحيل الصفحات المشرقة من تاريخ أمتنا صفحات مظلمة كالحة، مما يورث الإحباط ويدعو إلى الانهزام النفسي في أعماق أبنائنا الذين يقعون ضحايا استهداف أجنبي معادٍ، يعمل على مسخ العقل العربي والقلب المؤمن والنفس الإنسانية في الشخصية المعاصرة لأبناء أمتنا الذين نرجو على أيديهم الخلاص، ونأمل منهم الكثير الكثير.

وبانتقالي من مرحلة زمنية إلى مرحلة، ومن بلد إلى بلد، كنت أتصفَّح كتب التاريخ القديمة والحديثة، وأقرأ فصولاً منها بإمعان وتدبُّر مما كتب المؤلفون القدامى، وصنَّف المستشرقون، أو دوَّن على منوالهم تلامذتهم الجدد، الأمر الذي وضعني أمام تشعُّب في البحث جديد، يتسرب لمعظم العصور، ويبحث في كثير من الاتجاهات، حتى باتت المؤامرة أمامي ماثلة للعيان، مما زرع في أعماقي أملاً كبيراً وطموحاً نشطاً ظلَّ ينمو بنموّ الوعي الإسلامي المعاصر في مختلف حقول المعرفة وشتى مجالات الحياة.

ومن الإنصاف أن نقول بأنه خلال ربع القرن الماضي، وعلى فترات مختلفة عُدّلت مناهج كثيرة في عدد من البلاد العربية الإسلامية لما هو أفضل، وطوّرت لما هو أحسن، ولكن الأمر مازال بحاجة إلى عمل أكبر من ذلك التطوير، وأشمل مما تمّ من عمليات الترميم التي جرت على بعض المناهج في بعض الأقطار، في الوقت الذي وقعت فيه عملية سطوٍ أخرى على ذخائر التاريخ وصفحاته، لتفرز مسخاً معاصراً يلائم ما وقع من أحداث أجهضت أهداف الحركة الإسلامية المعاصرة في البناء والعطاء والانعتاق والتحرير، وحلّت في تاريخنا الحديث التقدّمي المزعوم مصطلحات علمانية طائفية باعدت بيننا وبين معطيات تراثنا وأمجادنا،

لتربطنا من جديد، وتشدّنا إلى عجلة المادية الغربية أو الشرقية العمياء، بحيث فرض علينا الأخذ بتقدير (الآلة) وإنتاجها دون تقدير (القيم) وما تقدّمه من ثمرات.

وعلى الرغم من تعمّق الشعور بالحاجة الماسّة والضرورة القصوى لإعادة كتابة تاريخنا من جديد، وتنقيته من الشوائب والشبهات؛ فإننا لم نرَ محاولات عملية جادّة يمكن أن تؤتي ثمارها إذا استثنينا محاولتين اثنتين:

إحداهما: عندما «تألفت جماعة مسلمة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وفق هذا المنهج، وقد قسّمت الجماعة حقول البحث إلى المراحل التالية: (مقدّمات التاريخ الإسلامي)، (الإسلام على عهد الرسول)، (المد الإسلامي)، (الانحسار الإسلامي)، (العالم الإسلامي اليوم) والجماعة مؤلفة من الأساتذة:

«الشيخ صادق عرجون، والدكتور محمد يوسف موسى، والدكتور عبد الحميد يونس، والدكتور محمد النجار، وسيد قطب»[1].

وقد ماتت هذه المحاولة أو أُجهضت بما نالهُ بعض رموزها من اضطهاد، وانتقال عدد منهم إلى رحمة الله.

والثانية: قامت حديثاً في بلد عربي يحكمه في الظاهر منهج «علماني يساري» وفي الباطن نزعة «قومية طائفية» يخشى معها أن يكتب التاريخ مزوَّراً بأسلوب معاصر، يتوفّر له من الأموال، ويقوم عليه من المختصّين الحاقدين ما يؤدي به إلى مزيد من تزوير التاريخ ومسخ معالمه، لبلوغ الغايات التي يريدها العدو، والوصول لما هو ضد ما تبغي الأمة من طموحات وما تريد.

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج، محمد قطب، ص ٦١.

ومن هنا كان من الضروري ـ ونحن ندعو إلى أهمية إعادة كتابة التاريخ من جديد ـ أن نشير إلى خطة عمل توضع، وفريق عمل يُختار من المخلصين، الواعين لحقيقة ما يدور حولهم، المدركين لما بثّ في تاريخهم من ضلالات، المتخصصين في هذا الحقل الهام من حقول المعرفة، المتفرّغين الذين ينصرفون إلى هذه المهمة يؤدّونها، وهذه الرسالة يبلغونها، وهذا اللواء الهامّ من ألوية الدعوة ونصرة الحق، يحملونه دون كلل أو ملل، يتعبّدون بذلك إلى الله، ويتقرّبون إلى وجهه الكريم، الأمر الذي يؤدي إلى وضع خطة منهاج واضحة تقسّم تاريخنا عصوراً تاريخية أو ميادين عطاء.

وفي ظنّي أن مثل هذا العمل لا يستطيع القيام به فرد مهما أوتي من العلم والمعرفة وقوة الجسد وسعة المال؛ وإنما لا بدّ أن يقوم عليه إحدى جهات ثلاث:

أولاً: حاكم يهب الله له ولو في أخريات أيامه، من الهداية والرشد ما يأمر به العاملين في دولته لكي يتولّوا هذا الشأن الهام من شؤون الأمة؛ فيدخل التاريخ من أوسع أبوابه وأشرف ميادينه.

ثانياً: مؤسسات مالية كبيرة يحرص أصحابها على الإنفاق في سبيل الله، يقومون بإنشاء مؤسسة فكرية ينفقون عليها كما ينفقون على بناء المساجد ودور رعاية الأيتام والمحتاجين، لعلّ الله يُجري على أيديهم هذا الخير الكبير بإعادة كتابة تاريخ الإسلام نقيّاً من كل شائبة، بعيداً عن كثير من الأضاليل والأباطيل، وفي إطار عرض الحقائق والأحداث، دون انسياق مع الخيالات دفاعاً عن هذا أو هجوماً على ذاك.

ثالثاً: حركة إسلامية واعية، أو مؤسسة علمية أكاديمية راشدة تولي

الأمر جهداً كبيراً، وتبذل من وقتها وثقافة أبنائها وأموال منتسبيها أو المتبرعين لها قلّت أم كثرت؛ ما يعمل على إخراجنا من ضياعنا في متاهات التاريخ، ويدخلنا إلى صفحات نقية ومواقف صادقة لا تشوبها شائبة، ولا تلوّثها المفتريات والشبهات؛ الأمر الذي يسهم في صناعة جيل جديد، ويمدّ ـ بزخم فكري وبشري ـ الصحوة الإسلامية التي يأمل الكثيرون منها الشيء الكثير.

لقد بدأت وزارة الأوقاف[1] بالكويت ـ ذات يوم ـ تجربة إعادة تدوين الفقه الإسلامي في ثوب جديد وبأسلوب معاصر، وتجربتها تلك وإن كانت متعثّرة بطيئة التحرك؛ إلا أنها تجربة رائدة، قطعت شوطاً على الطريق، وقدّمت بعض الثمرات، فهل نرى بلداً عربياً فيه أثارة من خير، وبقية من حرص على الإسلام؛ عقيدة ومنهجاً حياتياً وتاريخاً مشرقا، يتحرّك لتشكيل لجان جادّة تبدأ عملها جمعاً وتوثيقاً، وبحثاً ودراسة، تمهيداً لعملية تدوين كبرى مستنيرة تفرز الحَبّ عن الزوان، وتفرق بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، ليكون بين أيدي أجيالنا كتب تاريخ جديرة بأن تُدرس وأن يطّلع عليها الأبناء، مفاخرين بالصفحات المشرقة، معتبرين من كل خطأ وقع وكل انحراف جنح إليه بعض الآباء في لحظة ضعف بشري أو نزعة هوى مطاع!.

وبعد..

فإني أضع كتابي هذا بين يدي المعلمين والمربّين والطلاب والطالبات والشباب كافة، في مراحل الدراسة الثانوية والجامعية وما بعدها، لعلّ بعضهم يتّجه بتصميم وعن قصد وغاية لدراسة التاريخ

---

(١) كان ذلك قبل وقوع حرب الخليج.

ليكون يوماً من حَمَلَة الأقلام، للإسهام في حركة تدوين راشدة مأمولة في مقبل الأيام، كما أضع الكتاب بين يدي كل سويّ النفس منفتح القلب ممن وهب الله لهم نعمة المال أو جاه السلطة، لعلّ شعاعاً من النور يبزغ هنا أو هناك؛ فيبدّد جانباً من الظُّلْمة التي تكاد تُطبق علينا من كل جانب.

والله يوفق للرشد ويهدي إلى سواء السبيل.

يوسف العظم
عمان - الأردن

التاريخ بين الدّراسة والتّدوين

التاريخ بين الدّراسة والتّدوين

المنهج القرآني في دراسة التاريخ:

للمنهج القرآني سِمَةٌ خاصة يتميّز بها في دراسة التاريخ ومتابعة أحداثه في مختلف الأزمان وشتى العصور، حيث يركّز على ربط دمار الأمم وانهيار المجتمعات بارتكاب المعاصي، والإسراف في التّرف، والوقوع في الظلم الذي يقود إلى النهايات المحتومة من سقوط الممالك واندثار الحضارات وفناء الشعوب. ومن هنا ورد التكرار الكثير لقصص الأنبياء المهديين والأمم الغابرة والطواغيت المستبدّين، ليقدّم لنا العبرة في إطار واضح ندركه ونحسّ به كلّما قرأنا تاريخ أمة أو حياة طاغية أو انحراف شعب، ليقود ذلك كلّه إلى قناعات عميقة في النفوس بأن العدل يبني والظلم يهدم، وأن ممارسة القيم والتحلّي بالأخلاق الكريمة يقودان الأمة إلى مزيد من مواقف البناء والعطاء والسؤدد والكرامة، كما أن المعصية تقود إلى دمار الأفراد والأمم على السواء.

وبالتالي فإن الهدف من دراسة التاريخ في المنهج القرآني لدى المسلمين يقوم على الاستنارة بالماضي لتجنّب الأخطاء والخطايا، والاستزادة من الصواب والرشاد، لإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ومن هنا كانت خطة دراسة التاريخ والتفكير في إعادة كتابته من منظور إسلامي سليم، مستمدّة من المنهج القرآني الذي يعرض لنا الأمم والأحداث في وضوح وإيجاز وتحديد، يقودنا في النهاية إلى حقيقة

لا يختلف عليها منصفان، تلك هي أن كرامة الإنسان لا تتوفر إلا باحترام العدل وأهله، واحتقار الظلم وأهله، وأن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأن ازدهار الأمم ونهضة الشعوب لا تكون إلا في ظل أمن وعدل وحرية.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وقال جل من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

ويلاحَظ من سرد الآيات الكريمة التي بيّناها، أنّ التركيز يقوم على التنبيه إلى أنّ القوة والعنفوان والعمران لا يدوم منه شيء إذا كان ذلك قائماً على الظلم والبطش والجبروت، مع الإشارة إلى ضرورة إمعان النظر في هذه القضية والاعتبار بها أيما اعتبار.

وفي قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] تأكيد على ضرورة التبصُّر والتدبُّر والنظر في الأحداث

التاريخية وما نتج عنها، حتى يدرك الإنسان عاقبة الظلم والانحراف والتخلّي عن منهج الله:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ونلاحظ كيف ترد العبرة في سياق سرد الأحداث والتنبيه إلى خطورة البطر والظلم وارتكاب المعاصي في حياة الأفراد والشعوب، حيث يقول تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

ويبيّن الله عزّ وجلّ غفلة الذين يفرحون بما أوتوا من مظاهر النعيم، فيغرقون في الظلم، ويتمادون في ارتكاب الآثام؛ فتكون عاقبتهم الخسران المبين:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

ويؤكّد ربُّ العزّة جلّت قدرته وهو يقول في كتابه العزيز عن آل فرعون والذين من قبلهم إن عاقبة الظلم وخيمة، وإن فساد النفوس يقودُ بصورة حتميّةٍ إلى فساد المجتمعات وانهيارها:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٤].

وتتوالى الآيات المحكمات التي تشير إلى أن البطر والترف والظلم والطغيان يقودان إلى تفشّي الفساد، وانتشار المعاصي، وانعدام المقاييس السليمة في المجتمع؛ مما يؤدي إلى انهياره وهلاك أهله.

يقول تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

ويقول جلّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

ويقول عزّ من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

دراسة التاريخ في مواقع أحداثه:

وللاستزادة من الصدق في العرض، وتقديم صفحات من التاريخ ذات صلة وارتباط بمواقع الأحداث؛ يجدر بكاتب التاريخ ألَّا يكتفي بالبحث بين الكتب، والأخذ مما بين السطور؛ وإنما يمضي إلى مواقع الأحداث نفسها ـ إن استطاع ـ ليكون أكثر تأثُّراً وأقربَ إلى الصدق في معايشة الأحداث لما يشاهده، وما تقع عليه عينه من «مواقع» كانت ميادين وساحات استوعبت الحدث التاريخي واحتضنته ذات يوم، قبل أن يصبح تاريخاً يُقرأ أو أحداثاً يتابعها الناس عبر العصور.

ويستطيع المؤرِّخ الجوَّال أن يدرك عمق ما يكتب وصدق ما يصف حين يقف في مكة بالبيت العتيق وزمزم ومنى وعرفات، أو يمر بغار ثور وغار حراء، أو بشعب أبي طالب، والحديبية، أو بمسجد قباء أو مسجد الرسول الكريم ﷺ، أو بالبقيع أو مواضع غزوة الخندق أو غزوة أُحُد، أو غزوة بدر قرب المدينة المنورة؛ ليرى ويحسّ كأنّ طيوف أولئك الذين

صنعوا تاريخ هذه الأمة تطوف به أو تحوم حوله، فيقدِّر ما بذلوا من جهد وما قدَّموا من تضحيات، ومثل ذلك أو قريب منه يحدث عند زيارة عواصم الخلافة الإسلامية العديدة، أو مواقع المعارك الإسلامية في مؤتة والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت؛ لأن المرور بميدان الحَدَث يعطي مزيداً من القدرة على تصوير الحَدَث والواقعة، ويَهَبُ للكاتب والمؤرِّخ إطاراً يتناسب وينسجم مع ما يقدّم من صور متلاحقة متتابعة في مختلف الميادين وشتى الحقول التي عرفتها الأمة ومارست من خلالها حياتها الوافرة الجنى الغزيرة العطاء.

كما يستطيع المؤرِّخ إدراك كثير من الأحداث، وهو يمرّ بإيوان كسرى ومدائن صالح وأهرامات مصر، وآثار الدولة الرومانية واليونانية، ليؤكّد الصور التي تنقلها الكتب أو يتناقلها الكتّاب جيلاً بعد جيل، عن ازدهار الحضارات، وإبداع العقل البشري من جانب، والتمادي في الظلم وبطش الطغاة، وبطر المُترَفين وفساد المنحرفين، واندحار الأمم وانهيار الشعوب من جانب آخر!.

مَنْ يكتب تاريخنا؟

١ ـ مؤلفون قدامى كتبوا التاريخ وصنّفوا الكتب؛ إرضاءً للحاكم والسلطان أو الحزب السياسي أو المذهب أو الدولة:

وقد ركّز هؤلاء على رموز الحكم دون أبناء الأمة في القطاعات المختلفة من الجند والحرفيين وطلبة العلم والمزارعين والمبدعين من العلماء، كما ركّزوا على الحرب والقتال بصورة أكثروا من الحديث عنها، حتى أنهم قالوا عن عام لم تقع فيه حرب بأنه عام لم يقع فيه شيء يُذكر، متجاهلين أو غير آبهين بالمعطيات الأخرى في مختلف الحقول.

وقد مسخ بعض المؤرّخين في العصر العباسي تاريخ بني أمية في عصر الخلافة الأموية بدمشق والحكم الأموي في الأندلس. وجاء الفاطميون فمسخ كتّابهم ومؤرّخوهم التاريخ وفق رغباتهم.

ومن هنا لابد من تمحيص التاريخ من جديد وتنقية صفحاته مما يشوبها من اتّهامات باطلة أو تزوير مقيت. كما ينبغي أن توضَع مقاييس وضوابط للرجال الذي كتبوه بالأمس ويكتبونه اليوم، أشبه ما تكون بقواعد علم الرجال والجَرْح والتعديل في علم الحديث، حتى يكون تاريخنا أقرب إلى الصواب، وألصق بالحق وصدق الأحداث على مرّ العصور.

٢ـ مستشرقون أو مبشّرون:

وهؤلاء تخصَّصوا في الطعن في تاريخنا وتجريح قادتنا في مختلف الميادين، وإذا تحدّثنا عن الإنصاف والتجرُّد في كتابة التاريخ لدى هؤلاء، فمن الصعب أن نجد، وإن وجدنا فهي حالات فردية وأنماط قليلة العدد تذوب في زحمة التزوير ودوّامة التلويث الفكري لحضارتنا وأمجادنا التي هي مبعث اعتزازنا ومصدر مفاخرنا.

إن إبراز تاريخنا صفحات مشوَّهة من التطاحن، ومواقف رهيبة من التآمر نضعها بين أيدي أبنائنا مستمدَّة من كُتَّاب أُبرزوا عالمياً، ورُكِّز على عطائهم التاريخي من أمثال: بروكلمان، وجب، وجولد تسيهر، وجفري وهنري لامانس، وألِفْرد جيوم... أمرٌ يقود الجيل في النهاية إلى الكفر بالقيَم، والتنكُّر لكل ما ندعو الشباب له ونحثّهم عليه من التمسُّك بالمُثُل العليا والمعايير الأخلاقية السوية.

٣ ـ مؤرِّخون طائفيون:

من أمثال جورجي زيدان وفيليب حتّي اللذين أسهما إسهاماً رهيباً في تزوير تاريخنا بأقلام طائفية ترعرعت في أفياء الكنائس والأديرة، وعملت على تشويه الحقائق ومسخ الصور الصحيحة المشرقة من تاريخنا، ليأخذ الناس عنهم مناهج التاريخ وكتبه التي نضعها بين أيدي طلابنا في المراحل الدراسية المختلفة.

وهؤلاء بحكم توجُّههم الطائفي لا يجوز بحال اعتمادهم مؤرّخين منصفين أو كتّاباً موضوعيين بعيدين عن الغرض وسوء الغاية والقصد.

٤ ـ مؤرخون معاصرون من بني قومنا غافلون أو حاقدون:

وهؤلاء عن جهالة أو ضلالة أو ضعف وعجز، وجدوا بين أيديهم كتباً مصنَّفة وضعها خصوم هذه الأمة مكتوبة بلغة سهلة الأداء، فاكتفوا بتناولها من أرفف المكتبات، لينسخوا منها أو يعتمدوها مصادر لهم، ثم قدَّموها في دوّامة الفورة القومية والحديث عن العروبة، وإبعاد الإسلام باسم التسامح، أو حصره في أطر ضيقة تتنافى مع شمولِه وتكامله وتمام رسالته للناس كافة.

مَن يُعلِّم تاريخنا؟

١ ـ معلِّم تلقَّى العلم في بلد أجنبي، وأُعِدَّ إعداداً خاصاً على عين العدوّ الحاقد، فاستبدل بالكوفية القبّعة، وبالعربية الرطانة، وبأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة الأخيار جمعاً من الخواجات الذين لا أول لهم ولا آخر.

٢ ـ معلِّم حاقد على الإسلام لأنه تربَّى في محاضن حزب علماني

وعلى أيدي قادة ملحدين.

٣ ـ معلّم مضبوع بفكر المبشّرين والمستشرقين، مبهور بحضارة الغرب المادية ومنهاجه الحياتي.

٤ ـ معلّم ساذَج اتّخذ من التعليم مهنة ارتزاق وعملاً يقتات براتبه لقمة العيش، لا رسالة يؤدّيها بلهفة ويعمل على بلوغ أهدافها النبيلة السامية.

فأين المعلّم صاحب الرسالة الذي يغار على سمعة أمّته وحقيقة تاريخها المشرف، ويسعى للوصول إلى الحقيقة، ويعمل على عرض الأحداث بلا زيف ولا تضليل.

ولئن وجد هذا النمط المنشود من المعلّمين ذوي الأهداف السامية والغايات المتعلقة برسالة الأمة، فهو من الندرة والقلّة، بحيث يضيع في زحمة التضليل وحملات التشكيك المسعورة.

انحراف منهج العمل التاريخي:

يؤدي انحراف منهج العمل التاريخي إلى مغالطات شتّى وتشوّهات في عرض أحداث التاريخ بسبب «اختلاف شكل المرئي باختلاف زاوية الرؤية» كما تؤكّد القاعدة العلمية المعروفة، ويضيف الأستاذ محمد قطب: «وكذلك الشأن في الأحداث والتاريخ»[1].

وبناءً على هذه القاعدة العلمية والحقيقة التاريخية معاً، لابدّ لنا من التأكيد على أن للباحث الأوروبي مواقف متعدّدة ومواقع شتّى، الأمر الذي يقوده في المسيرة إلى نظرة خاطئة، ومنهج للعمل التاريخي غير سوي

---

(١) التاريخ فكرة ومنهاج، محمد قطب.

ولا علمي ولا سليم، وأبرز هذه المواقف:

أولاً: جهل الغالبية العظمى من المستشرقين بعلوم اللغة العربية ـ الأسلوب التعبيري الحيّ المتجدّد عن الحضارة الإسلامية ـ مما يجعل كثيراً من أسرار هذه الحضارة ومعطياتها وغاياتها وأساليب أدائها من المغاليق التي لا يصل إليها إلاَّ كل متمكّن من اللغة مطّلع بعمق على مدلولاتها وأدوات التعبير فيها.

ويكفي أن أضرب لهذا الموقف مَثَلَيْن اثنين يشيران إلى أثر الجهالة باللغة لفظاً ومعنىً في سَوْقنا إلى مغالطات ومتناقضات تدمّر المنهج العلمي الرصين، وتحول دون وصول الحقائق المنشودة إذا افترضنا حسن النيّة وسلامة القصد:

١ ـ يورد محمد بن شهاب الزهري ـ وهو أول من دوَّن الحديث ـ: «أن الخلفاء قد أمروا العلماء بتدوين **الأحاديث**»، وواضح هنا أن الأحاديث تعني أحاديث رسول الله ﷺ، فنقل المستشرقون النص محرَّفاً، وقالوا: «إن الخلفاء قد أمروا العلماء بتدوين أحاديث»، وفَرْقٌ بين تدوين (أحاديث) موضوعة يختلقها المدوِّنون اختلاقاً، وبين تدوين (الأحاديث) التي وردت بالفعل، وتحتاج إلى جمع وتدوين وتمحيص، وواضح البون الشاسع بين مَن يجمع الأحاديث من مظانها، ويبحث عن صحة النص والرواية والسند، وبين مَن يختلق (أحاديث) وهمية لا وجود لها[1].

ويسوقنا مثل هذا الموقف إلى ولع الأوروبيين بالتلاعب في الألفاظ قديماً وحديثاً، والحادثة التي أوردناها هنا تمثّل التلاعب القديم؛ أما في

---

(١) راجع السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، الطبعة الثانية.

العصر الحديث، فقد حذفوا ال التعريف من قرار مجلس الأمن (٢٤٢) عند بحث القضية الفلسطينية، حيث نصّ القرار في الأصل على انسحاب قوات الاحتلال اليهودية من «الأراضي العربية المحتلة»، فصار النص بعد حذف ال التعريف: الانسحاب من (أراضٍ عربية) محتلّة، ومعنى ذلك الاكتفاء بأي انسحاب جزئي من أي جزء ولو كان يسيراً من تلك الأراضي المحتلّة. مع عدم إقرارنا وقبولنا إلا بانسحاب شامل ندعو له، من جميع فلسطين.

٢ ـ في كتاب تاريخي منشور في لبنان يتحدّث مؤلّفه عن قائد عربي عظيم اسمه (الكعكة) الأمر الذي يثير الدهشة ويبعث على التساؤل: مَن هو هذا (الكعكة) العظيم؟.

وبعد التمحيص والبحث في الكتاب ومجريات الأحداث يتبيّن أنّ مؤلّفاً أجنبياً كتب عن القائد المسلم (القعقاع) بن عمرو فصلاً، وقد أورد فيه القائد بالأحرف اللاتينية التي تخلو من العين والقاف معاً مما لم يدركه المترجم العربي، فنقل الاسم (كعكة) بدل القعقاع؛ فتأمّل!..

ثانياً: الاختلاف في الدين، حيث ينظر الأوروبيون للدين نظرة محدودة وفقاً للنظرية الكنسية التي تفصل الدين عن الحياة، وتجعله مجرّد علاقة بين الإنسان وربّه، مما يعكس ذلك التصوُّر الكنسي في ذهنية المؤرخ الغربي على دراساته للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فتجيء تلك الدراسات بعيدة عن الشمول والتكامل الإسلامي الأمثل، أو مستهجنة لهما على الأقل غير مدركة لأبعاد الصورة المثلى والملامح الكلية لأحداث التاريخ والدوافع الكامنة وراء تلك الأحداث.

ثالثاً: الطائفية المأجورة التي تتحرّك أقلاماً وعقولاً وقراطيس، تموّلها مؤسسات علمية مشبوهة، وتمدّها بالمال مجامع كنسية

أو إرساليات ذات أهداف صليبية مغرضة. ولو حاول بعض المستشرقين التخلُّص من أثر مثل تلك المؤسسات والضغوط التي تمارسها، لوجد في ذلك صعوبات جمّة ليس من السهل تذليلها أو التخلُّص منها.

يقول (أوليريش هارمان):

«وطبعاً هناك أيضاً الضغط المُلِحّ من قِبَل أولئك الذين يقدّمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي الإسلامي والتشبث به، باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه»[1].

رابعاً: الطائفية الحاقدة التي تكمن في قلوب الكثير من المستشرقين يمثّلها قول (موير):

« إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية والحقيقة».

وقول (فون جرونيام):

« الإسلام دين غير إنساني، وغير قادر على التطوُّر والمعرفة الموضوعية، وهو دين غير علمي واستبدادي »[2].

ويكفي أن يكون لدى المستشرق أو الباحث مثل هذه الروح لتموت معها روح التجرّد والبحث العلمي المنصف الموزون.

خامساً: الذكريات الأليمة التي تكمن في نفسية الباحث، وتسيطر

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، للدكتور محمود حمدي زقزوق، نقلاً عن مجلة الباحث، ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن الاستشراق، لأدوارد سعيد، ص ٨٩، ١٦٨، ٢٩٦.

على عقله وتشكّل جزءاً مرّاً من ثقافته التاريخية، حين يتذكّر فتح الأندلس وزحف العثمانيين على أوروبا لنشر الإسلام فيها وإعلاء راية التوحيد، بالإضافة إلى هزيمة الصليبيين في حطين، وأسر إمبراطور فرنسا في المنصورة، وما إلى ذلك من مواقف تاريخية تضع المسلمين في ذروة النصر وقمة المجد، وتضع الأوروبيين في الدرك الأسفل من الهزائم المتلاحقة.

سادساً: الاستعلاء الأوروبي الذي يشكل حالة مرضيّة عند الغربيين، إذ يعدُّون أنفسهم متميّزين في كل شيء سواء في العقل أو الفكر أو نمط الحياة الاجتماعية، وهي حالة من حالات العمى التي تطمس على البصائر، فلا يرى معها صاحبها أحداً سواه، لأن الناس يوزنون في نظره بميزان تصوراته وأوهامه، مما يقضي تماماً على المقاييس الموضوعية والمعايير العلمية وأساليب البحث المنصف الرصين.

سابعاً: الأهداف الاستعمارية التي سخّرت الاستشراق لخدمتها وتحقيق أطماعها، والتي من مهامها إبقاء المسلمين في حالة من الضعف والتشتّت والإحباط، يستطيع الغرب معها أن يسيطر على ديار العربية والإسلام؛ لاستلاب خيراتها ونهب ثمراتها.. وكيف يمكن لمستشرق أن يكون منصفاً موضوعياً إذا كان من مهام عمله أن ييسر للصوص سبيل السرقة لقطع الطريق على الآمنين؟.

ثامناً: انعدام الروح الغيبية النابعة من المفهوم العميق للتقوى ومخافة الله، التي تنبثق منه قِيَم الخير والمحبة والإيثار والعطاء والذوق والجمال، وغير ذلك من ثوابت المُثُل السامية والأشواق الندية الشفيفة، وهي أمور تنعدم وتتلاشى في ميادين العمل المادّي وحقول العلم التجريبي المجرَّد.

تاسعاً: اكتفاء عدد غير قليل من المستشرقين والدارسين بما دُوِّن في الكتب، أو قَصْرُ اتصالهم على العامة دون الخاصة، مما يحول بينهم وبين الفهم السليم لأحكام شريعتنا ومقوّمات حضارتنا وأسرار لغتنا، في الوقت الذي يستطيعون فيه الاتصال ـ لو أرادوا ـ بالخاصة والعلماء في مختلف حقول اللغة والفقه والفكر للاستيضاح عن كل ما يدق معناه أو يصعب مغزاه.

* * *

أمتنا في العصر الحديث
قرأت تاريخها مشوهًا

منهجية مغرضة وروح طائفية:

اعتمد المزوِّرون في كتابة تاريخ أمتنا منهجية سطحية مغرضة وروحاً طائفية حاقدة، بحيث أظهروا فيه من العيوب والسلبيات ما كان صغيراً غير ذي بال، فضخّموه وعظّموا من شأنه، وكان بعضه غير موجودٍ ولا قائم، فاختلقوه وأنشؤوه، ليبدو تاريخنا مشوّه الوجه، ممزَّق الصورة، لا هدف لصانعيه إلاَّ شهوات المعدة والجسد والرغبة في سفك الدماء والاستيلاء على السلطة.

ومن أبرز منطلقات تلك المنهجية المغرضة، وأوضح ملامح تلك الروح الطائفية الحاقدة:

أولاً: المنطق القومي العلماني أو العروبة الجاهلية، اللذان يبرزان التاريخ الجاهلي على أنه التاريخ الذي نعتزّ به ونفخر، والقول بأن العرب كانوا أمة ذات وزن ومكانة قبل الإسلام، مع أن هناك من الحقائق الثابتة ما ينفي ذلك وأهمها:

١ ـ حضارة العرب قبل الإسلام لم تكن حضارة عالمية، بل كانت حضارة محلية لم تخرج من حدود الجزيرة العربية وما حولها، ولم تكن عامّة في الجزيرة العربية كلها، وإنما تركَّز أهمها في جزء من اليمن وبعض مناطق الحجاز.

٢ ـ حضارة العرب قبل الإسلام كانت حضارة مادية محضة، وفي حدود ضيّقة، عرفت في مجال بناء السدود وري الأرض وزراعتها، مثلما كان في عهد مملكة سبأ.

٣ ـ أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم كيان متميّز أو وزن يعتدّ به بين الأمم المعروفة يومئذٍ، بل كانوا تبعاً للروم والفرس، يدافعون بسيوفهم عن عروش القياصرة والأكاسرة، فإذا غضب قيصر حرّك جيشاً عربياً من الغساسنة، ليلقاهم أبناء عمومتهم المناذرة المدافعون عن كسرى ومُلكه وعرشه وصولجانه.

٤ ـ أن العرب كانوا يعتزُّون ببعض القيم السليمة كالشجاعة والكرم وحماية الجار، ولكن هذه القِيَم كانت تغرق في مستنقع من الآفات والخطايا التي تخرج العرب من عالم الإنسان إلى دنيا الوحوش الضارية التي يفترس بعضها بعضاً، ويعتدي بعضها على بعض، وما أحسب أن أحداً يتجاهل ما كانت تلقاه الأنثى من سوء معاملة بالوأد والحرمان من الميراث، بل تحويلها إلى سلعة أو عقار يورَث ولا يرِث، أضف إلى ذلك ما كانت تلقاه المرأة من مهانة في ألوان النكاح المستنكرة البغيضة:

أ ـ ففي نكاح الاستبضاع، كان الزعيم لدى بعض القبائل يرسل بزوجه إلى نجيب نابهٍ من القوم لتبيت عنده، وتحمل منه من ينسب بعد ولادته إلى زوج المرأة، لا إلى صاحب النطفة الذي ارتكبت معه المرأة فعلتها التي لا يقرّها عليها دين، ولا ترضى بها مروءة!.

ب ـ ونكاح الرهط الذي يجمع عدداً محدوداً من الرجال على امرأة واحدة، فإن ولدت بعد ذلك نسبت وليدها لمن تختار من أولئك الرجال، فيرضى به ولداً، وهو يعلم أن المشاركين له في اللقاء بها كُثُر لا يعرف أيهم أب للولد.

جـ ـ ونكاح ذوات الرايات اللاتي كنّ يرفعنها فوق مضارب خاصة بهن في أسواق العرب المختلفة، فيتردّد على المرأة الواحدة عدد من الرجال غير معروف ولا محدَّد، فتنسب المرأة بعد حملها من تحمله في أحشائها للرجل الذي تختاره من بينهم، ولا يملك ـ وفق العرف والعادة ـ أن يرفض ذلك أو ينكره.

٥ ـ لم يكن للعرب ثقافة ولا جامعات ولا مدارس ولا مكتبات، ولم تكن القراءة بينهم شائعة، وهو حال تبدَّل بعد الإسلام، فكانت لهم الجامعات والمدارس والمستشفيات والمكتبات، وغير ذلك من مجالات المعرفة وحقول الثقافة.

٦ ـ كان العرب في حروبهم جَهَلة لا يحكّمون العقل السلّيم والفكر القويم، وكانت الحروب تدوم بينهم سنين طويلة لسبب تافه لا يتعدّى سباقاً بين فرسين كما حدث في حرب داحس والغبراء، أو دخول ناقة في زرع أحدهم كما حدث في حرب البسوس.

٧ ـ كان العرب ممزّقين لا تجمعهم وحدة، ولا يلمّ شتاتهم كلمة أو رأي أو قائد، وكان (شرع القبيلة) هو السائد وهو المحكّم في المجتمع العربي قبل الإسلام:

وهل أنا إلاّ مِن غَزيَّةَ إنْ غَوَتْ غَويْتُ وإن ترشُد غزيةُ أَرْشُدِ

وكان العرب في مجملهم غلاظ الأكباد قساة القلوب إلى أبعد حدود القسوة، فكان القوي منهم يأكل الضعيف، والغني يحتقر الفقير، وكانت الطبقية القبلية والعنصرية الجاهلية متفشية بينهم، حتى جاء الإسلام؛ فآخى بين بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، وبين غيرهم من المهاجرين والأنصار، لا فرق بين غني وفقير، أو سيد

ومَسُود، حتى قام المجتمع الإسلامي الأمثل في ظلّ دعوة الإسلام.

٨ ـ جاء الإسلام فصنع من العرب أمة وصفها ربّ العزّة ـ بعد أن أكرمها بالإسلام ـ بأنها خير أمة أُخرجت للناس، وصارت راياتهم راية، وقبائلهم أمة، وشراذمهم جيشاً، وزعاماتهم المتناحرة قيادة واحدة ذات وزن عالمي مرموق.

ثانياً: إبراز التاريخ الإسلامي على أنه اقتتال يدور بين الرؤساء، وتشاحن بين القادة، وإغفال عظمة الإسلام، ووحدة المسلمين، وأهداف الجهاد، ورسالة المجاهدين، وكرامة الشهداء، وأسباب النصر وعوامل القوة، ولذا جاء التركيز في كثير من كتب التاريخ المشبوهة على معركة صفين والجَمَل وكربلاء؛ أكثر من التركيز على بدر وخيبر واليمامة ومؤتة واليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت.

ثالثاً: إغفال جوانب التكامل الحضاري والشمول الفكري في تاريخنا، بحيث أظهروه على أنه أيام دموية متوالية يأخذ بعضها بخناق بعض، مع إغفال جوانب البناء والعطاء والخير والجمال والبر والمرحمة، مما يتناول العمران والقيَم والعلوم والمعرفة وغير ذلك، وهو ما سنعرضه ونبيّنه بإذن الله.

رابعاً: تغذية روح الفرقة بين المسلمين، وذلك بإحياء آراء بعض الفِرَق المنقرضة التي عرفها التاريخ الإسلامي؛ كالدهرية والمرجئة والمعتزلة والخوارج، وتبنّي ثقافة الطوائف الشاذّة المنحرفة؛ كغلاة الشيعة، وغلاة المتصوّفة والقرامطة، واعتبار ما يقولون به ثقافة سوية يجدر تقديرها ويحسن الأخذ بها.

خامساً: تسجيل الشبهات والخلافات دون تمحيص، وذلك

بالبحث في بعض كتب الأوّلين من المؤرّخين الذين كانوا يتعصّبون لهذا الخليفة أو ذاك، ولدولة دون دولة؛ لإبراز الخلافات بين الأمويين والعباسيين وغير هؤلاء وأولئك، والأخذ بكل ما كتبه مؤرّخ فريق ضد الفريق الآخر، دون تمحيص للأحداث ولا دقة في البحث ولا روية، ليظهر التاريخ الإسلامي صفحات من النزاع على السلطة ورغبات في اتّباع الهوى.

سادساً: التركيز على تاريخ الحكّام، وإغفال دور الشعوب في صنع كثير من أحداث التاريخ.

الدراسات الأدبية نافذة يتسلّل منها المزوّرون:

تعتبر المراجع الأدبية غير الموثّقة من أسوأ المصادر التاريخية التي يعتمدها المزوّرون للتاريخ، وهم يبحثون عن المفتريات وينشدون الشبهات، ليلتقطوا زلة من هنا وانحرافاً من هناك، ليصاغ ذلك كلّه في قالب تاريخي ودراسة علمية متهافتة يستند إليها واضعو المناهج التعليمية ومؤلفو الكتب المدرسية، لتستقرّ صفحات كالحة وصوراً شوهاء بين أيدي أبناء الأجيال المتعاقبة.

والذين يلجؤون من المؤرخين المعاصرين لكتاب «الأغاني» وأمثاله من الكتب التي تهتم بسرد قصص القيان وأخبار المغنين، وما يجري في مجالس اللهو والشراب والمعابثة، ويبالغون فيما يجري فيها ويزيدون، إنما يقصدون إظهار الوجه المظلم العابث من حياة الأمة بعيداً عن مواطن الشجاعة والصدق ومواقف العدل والإنصاف وساحات البر والخير والعطاء والبناء والمرحمة، الأمر الذي يهيّئ للعدو المجال أن يزوّر وفق هواه وللغافلين من أبناء الأمة أن يتيهوا في دوّامة الإحباط والضياع.

أما الدراسات الأدبية المعاصرة، فباب يؤدي بنا لكثير من المتاهات ومسارب الضلالة، ذلك أن الدارسين الذين لا يعصمهم دين، ولا يتّخذون التقوى والعدل مقاييس لهم، فإنهم يظهرون القيم في الأدب الجاهلي مشرقة وضيئة، وهم يركّزون على جوانب منها كالشجاعة والكرم وحماية الضيف والوفاء بالوعد، ويغفلون من أدب الجاهلية ما يندى له الجبين مما نعرف؛ من وأد الأنثى ونكاح الاستبضاع وذوات الرايات وسيادة شرع القبيلة الذي يأكل به القوي الضعيف، واحتقار المهنة والعمل، والاقتتال الوحشي الذي لا مبرّر له ولا غاية سوى خلاف حول ناقة أو صراع حول فرس سبقت أخرى؛ ثم يبرزون من أدب العصور الإسلامية ما يدعو إلى مجون أو يشجع على هابط السلوك، مما يقوله شاعر ماجن أو يقع فيه حاكم أرعن.

إن الحديث عن فروسية عنترة وأنفة عمرو بن كلثوم، وحكمة زهير، وكرم هرم بن سنان، دون الإلماح أو الحديث عن كثير من عيوب المجتمع العربي قبل الإسلام؛ يقابل ذلك الحديث عن هجاء الحطيئة، وما يُقال عن ضعف شعر حسان بعد إسلامه والإكثار من الاستشهاد بغزليات عمرو بن أبي ربيعة وملاحقته للعذارى والحِسان في مواطن العبادة ومناسك الحج، وإبراز مجون أبي نواس، وتكسّب عدد من أبرز شعراء العصور التي تلت عصر الجاهلية وشهدت عزّة الإسلام. . مثل هذه الأمور تبدو في كثير من الأحيان مقصودة تهدف إلى إبراز معالم مضيئة في حياة مجتمع الجاهلية، وأخرى باهتة كالحة في المجتمع الإسلامي الجديد؛ الأمر الذي يحتم علينا ضرورة الحذر والتنبّه عند اتّخاذ المصادر الأدبية واعتمادها جزءاً من مصادر تاريخنا عبر العصور.

أفسد البذور وأسوأ الثمرات:

بمثل هذه المنهجية المُغرضة والروح الطائفية الحاقدة التي بذروا بذورها في نفوس أبنائنا، وتوصّل الأعداء والخصوم إلى أن تقطف أجيالنا أبشع الثمرات التي يمكن أن نشير فيما يلي إلى أخطرها وأسوئها أثراً في إعداد جيل الهزيمة، وصناعة مجتمع التمزُّق والضياع:

١ ـ استطاع مزوِّرو تاريخنا أن يفرغوا الإسلام في أذهان الكثيرين من أبنائه من مدلوله الحضاري ومفاهيمه الإبداعية، وحصره في النطاق اللاهوتي، والإطار الكهنوتي من منظور الفكر الكنسي تجاه الدين، على أنه علاقة بين العبد وربه، لا منهج حياة متكامل بكل شمولية الحياة وسلوك الإنسان وعلاقات المجتمع.

وفي أحسن الحالات ركّزوا على جانب التعبُّد الذي يتناول الشعائر دون الشرائع ليبدو ديناً تعبدياً في النطاق الخاص من مفهوم العبادة، ولذا بات مألوفاً لدى الداعية أن يواجهه رجل فاضل متعبِّد يحتل مقعده من الصف الأول في المسجد بقوله: رائع ما قلت ودعوت الناس إليه، لكنك خلطت الدين بالسياسة والاقتصاد والشؤون الصحية!.

٢ ـ واستطاع مزوِّرو تاريخنا إعطاء كلمة الجهاد لدى الشعوب الغربية مدلولاً بشعاً، يصوِّر القتل وسفك الدم والنهب والسلب والعدوان، حتى باتت المجتمعات الغربية صليبية وعلمانية على حدٍّ سواء تتقزَّز من مفهوم الكلمة، وتخشى مدلولها.

مع أن المدلول الحقيقي يصوِّر الوجه المشرق للحضارة الإنسانية بإعلاء كلمة الحق والمرحمة ودحر الباطل والانتصار للمظلومين والمستضعفين في الأرض ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

﴿ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، الأمر الذي ينفي أن يكون تاريخنا الحضاري على اتساع صفحاته مجرّد تاريخ عسكري يمثّله قتال مستمر لا ينتهي، ومعارك متلاحقة لا تقف عند حدّ، بحيث تختفي في دوّامة المعارك وحومة الاقتتال صور عديدة مشرقة وملامح مشرّفة مضيئة.

وقد انساق بعض المسلمين وراء هذا المسخ لمعنى الجهاد، فحذفوا الكلمة من تعابيرهم ومصطلحاتهم، ليحلُّوا محلها كلمات الصراع والنضال والمقاومة، ولقد أوغل القوم في مسخ هذا المعنى الإسلامي الهادف وهذه القيمة الحضارية السامقة في حروبهم مع أعدائهم، فقد سُمِّيَت الحرب مع اليهود عام ١٩٧٣م أثناء استمرارية المعركة (حرب رمضان) وما كادت تنتهي حتى سمَّاها الإعلام وأطلق عليها أسماء أخرى.. ونسي القوم أن من أبرز الأسلحة التي خاضوا بها المعركة ورفعت من معنويات الجند، وشدّت من أزرهم وأعانتهم على الثبات هتافات: لا إله إلا الله، والله أكبر!.

٣ ـ عمل مزوِّرو تاريخنا على إحلال كلمة (العروبة) محلّ كلمة (الإسلام)، وكلمة (القومية) محل مصطلح (الدين)، مع أن العصر الذي نعيش فيه عصر فكر لا عصر عصبية ولا عنصرية، وقد تخطّت أوروبا هذه المرحلة إلى حدٍّ بعيد، ولكنها صدَّرتها لنا بكل ضيق الأفق في مدلولها، كما تصدَّر الأطعمة المعلّبة، لنبدأ من حيث انتهوا؛ والأطعمة المعلّبة إذا تعدّت المدّة الزمنية المخصّصة لها فسدت وأفسدت.

وقد لقيت هذه التسميات هوىً في نفوس غير المسلمين لما

يحملونه من جهل بحقيقة الإسلام أو حقد عليه، وفي نفوس بعض المسلمين طبعاً، لما في الإسلام من التزامات وسلوك ومنهج عملي في الحياة، يودُّون التخلُّص منه استجابةً للنزوات وطاعة للهوى.

على أن فريقاً من دعاة (العروبة) غير العلمانيين لا يرون عداء بين الإسلام والعروبة، لأن العروبة ـ كما يرى هذا النفر المنصف العاقل ـ سند للإسلام وظهير، لأن ما بين العروبة والإسلام علاقات حميمة تؤدي إلى تجسير بين المعنيين لا تضادّ كما يتوهَّم المعادون لأمَّتنا الممزِّقون لوحدتنا.

٤ ـ عمل مزوِّرو تاريخنا ومشوِّهو حضارتنا على صناعة جيل الإحباط والضياع والهزيمة؛ وذلك بزرع بذور الشك في نفوس أبنائنا، وفي قدراتهم على رفض الوجود الأجنبي بأنماطه المختلفة، وأوحوا له بأسلوب موجَّه مدمِّر ألا سبيل للاستغناء عن الأجنبي في كثير من مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والتربوية، وهم يزعمون: لئن تخلَّصتْ بعض أجزاء الوطن العربي في ديار العربية والإسلام من بعض أشكال التبعية العسكرية، فإن ذلك لا يعني القدرة على الاستغناء عن الأجنبي في جميع المجالات، مما صنع في ديارنا جيلاً يائساً يقوده الإحباط، وتسيطر عليه الهزيمة من الداخل؛ الأمر الذي أدى إلى هزيمة عسكرية تعتبر مظهراً خارجياً للهزيمة الداخلية التي سبقتها وأورثتها الأمة في أتعس حالات الضعف والتمزُّق والشتات.

٥ ـ زرع مزوِّرو تاريخنا وماسخو مناهجنا التربوية وبرامجنا الإعلامية في نفوس الأبناء بذرة الخلط بين (العلم) الذي هو للجميع من الجميع و(الثقافة) التي تعتبر خصيصة لكل شعب يتميَّز بها عن الشعوب الأخرى، مع فتح باب التأثُّر الإيجابي والتأثير الخيّر البنّاء، وصار لدى فئات كثيرة من أبناء الأمة نوع من القناعة بأنه من الصعب أن نستورد الآلة

من بلد ما لم نستورد معها نمط التفكير وأسلوب الحياة ومنهج السلوك الإنساني، فأنشئت برك السباحة المختلطة قرب المدارس، وقامت المراقص مقابل الجامعات، ودخلت زجاجات الخمر مع زجاجات الدواء، وأُنشئت فِرَق الفن الخليع للترفيه عن الجند في المعسكرات والقواعد العسكرية، وارتفعت صروح للربا أمام المساجد، الأمر الذي أحدث إرباكاً في المسيرة، وأوجد نوعاً من التضاد والصراع بين منهجين: المنهج الربّاني الذي يربي الأمة على كل ما يرفع من شأنها ويعلي مكانتها، والمنهج المستورد الذي من أولى مهامه ألا تكون الأمة وألاَّ يقوم لها وجود!.

٦ ـ رسَّخ مزوِّرو تاريخنا قناعة لدى الكثيرين من أبناء الأمة انعدام «القدوة القيادية» في تاريخنا سواء في مجالات القيادة العسكرية أو القيادات الفكرية والعلمية والاقتصادية؛ فقد بذلوا كثيراً من الجهد والمال لتشويه سمعة الأعلام من صانعي تاريخنا وأحداثه المشرّفة، فحاولوا النيل من إيمان أبي بكر وأسموه رائد القومية العربية، وزهد أبي ذر وسمَّوه رائد الاشتراكية، كما حاولوا النيل من نزاهة عمر في بيعة السقيفة، ومن عدالة عثمان، وكفاءة علي، وعفة خالد رضي الله عنهم أجمعين، بل ما تركوا قائداً من قادتنا ولا رائداً من روَّادنا الأوائل إلا وأثاروا حوله الشبهات، حتى سيّد الخلق نبي الرحمة ورسول الهدى ﷺ، حاولوا النيل منه بإثارة الشكوك حول شخصه في كثير من جوانب حياته، وقد باؤوا بالفشل وعادوا بالخذلان، لكنهم تركوا بصمات لهم ملوثة على عقول بعض المنهزمين أمام الزحف الفكري الأسود للثالوث الرهيب: الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية والصليبية الحاقدة، يجمعها إطار واحد من العداوة تحت أسماء عديدة وعناوين شتّى تعمل لهدف واحد هو هزيمتنا وشتاتنا واندثار حضارتنا من الوجود.

٧ ـ حرص الكتّاب والمفكّرون المعادون من مزوّري تاريخنا على تقديم نمطين من الفكر على أنه يمثّل الفكر الإسلامي، ليبدو التناقض والتهافت والخلاف والانحراف في صميم عقيدتنا وبنية فكرنا، وقد تناولوا عقائد الفِرق التاريخية المنقرضة وفكرها فأحيوه؛ كالخوارج والمعتزلة والدهرية والمرجئة، ووضعوه في قوالب جديدة تأخذ طابع الحوار الهادف والمناقشة العلمية، وألبسوه مسوح حرية الرأي والبحث والدراسة الموضوعية، كما نشروا عقائد الفِرَق المنحرفة وفكرها؛ كالقرامطة والغلاة والباطنية والبهائية والقاديانية وغيرها، مما يمثّل المؤامرة على الإسلام عبر تسلل اليهودية والإباحية والصليبية والوثنية بأسلوب معاصر ووسائل متطوّرة، كان للإنجليز في الهند ولليهوديّة في إيران دور كبير في إحيائها، وبعث معتقداتها على الساحة الإسلامية وفي المعاهد الأكاديمية والمجامع العلمية.

* * *

المستشرقون ودورهم في الإنصاف أو تزوير التاريخ

المستشرقون ودورهم في الإنصاف أو تزوير التاريخ[1]

من الصعب أن يتناول الباحث موضوع «كتابة تاريخنا من جديد» بعيداً عن الشبهات والمفتريات، دون أن يتناول بالبحث جمهرة المستشرقين القدامى والمحدَثين الذين عُنوا بدراسة ديانات الشرق ولغاته وتقاليده وعاداته، دراسة كانت تتسم بالبحث العلمي والموضوعية الرصينة عند البعض، وبالغَرَض والدسّ والتشويه عند البعض الآخر.

وقد خصّ كثير من هؤلاء وهؤلاء الإسلام بكثير من أبحاثهم المستفيضة، وتناولوا جوانبه المتعدّدة بالدراسة العميقة أو السطحية الساذجة وفق غاية الباحث وتبعاً لمقصده.

وبتتبع كثير مما قدّمه أولئك المستشرقون من منصّفين ومغرضين على حدٍّ سواء، يمكن تقسيمهم إلى أنماط ثلاثة:

---

(١) مصادر هذا البحث:

أ ـ مجلة الأمة القطرية، العدد ٤٨، ذو الحجة ١٤٠٤هـ، أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤م، مقالة د. محمود بن الشريف.

ب ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (كتاب الأمة)، للدكتور محمود حمدي زقزوق.

جـ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، الطبعة الخامسة، ١٩٧٠م، دار الفكر ـ بيروت.

د ـ في التاريخ: فكرة ومنهاج، لمحمد قطب.

هـ ـ عظماؤنا في التاريخ، للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

الفريق الأول:

عكف على دراسة الإسلام عقيدة ونظام حياة، فعرف فيه الحق الذي لابد أن يُتَّبع، وقاده ذلك إلى إعلان إسلامه والاعتزاز بهدايته، بحيث راح يفنّد آراء المغرضين الحاقدين، ويردّ على شبهاتهم وافتراءاتهم بالبرهان الساطع والحجّة الدامغة.

وقد مضى هذا الفريق المؤمن يعرض الصفحات المشرقة من تاريخ الإسلام، ويُبرز الجوانب الإيجابية من معطياته الحضارية، غير مغفل ما في تاريخنا من سلبيات أو عيوب لا يخلو من مثلها تاريخ أمة من الأمم، بل لا تقاس بعيوب كثير من الأمم التي لم تسهم في الحضارة الإنسانية مثلما أسهمت الأمة الإسلامية، على أن مثل تلك العيوب التاريخية خاضعة لاحتمالات الصواب والخطأ، ونوازع الخير والشر في السلوك البشري والعنصر الإنساني غير المعصوم.

ومن أشهر المستشرقين الذين عُرفوا بإيمانهم وغيرتهم على الإسلام ودفاعهم عنه:

١ ـ **الفونس ايتين دينيه**: كاتب فرنسي من المحدَثين درس الأديان دراسة مقارنة، قادته في النهاية إلى معرفة حقائق الإسلام وجوانبه المشرقة مما دعاه لإعلان إسلامه.

وله عدد من المؤلَّفات القيّمة المنصفة، أبرز فيها مزايا العرب الذين حَملوا شعلة الإسلام وأناروا بها أرجاء الكون، وقد مجّد سجاياهم وأثنى على تقاليدهم الحميدة، ومن كتبه (حياة العرب) و(الشرق كما يراه الغرب) و(الصحراء) أما أهمها فكتابه (تاريخ سيدنا محمد ﷺ) الذي وضعه بالفرنسية وترجمه إلى العربية، وقد كتب مقدمته الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر السابق ـ يرحمه الله. والكتاب مزين

بلوحات وصور ملوّنة رائعة تمثّل جوانب شتّى من حضارة الإسلام في أبعادها العديدة ومعطياتها في شتّى الحقول، وقد قدّمه المؤلف هدية لأرواح الجنود المسلمين الذين استشهدوا في حروبهم مع الفرنسيين.

ومن الجدير بالذكر أن لهذا المستشرق المفكّر المِفَنّ لوحات رائعة تزيّن متحف لوكسومبرغ، وهو المتحف الذي يضمّ لوحات من إبداع مشاهير أهل الفن من الفرنسيين، وأشهر لوحات هذا المفن المسلم لوحة سمّاها (رمضان).

ولهذا المستشرق المسلم رأي في المستشرقين جدير بالتأمّل والتقدير، حيث يقول:

«من العسير أن يتجرّد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرّخون حياة الرسول محمد ﷺ وحياة صحابته».

ولذا نذر نفسه وفكره وقلمه للردّ على المنحرفين الحاقدين المستشرقين، الذين شكّك فيهم، واتّهمهم محقّاً بالتحيّز والمغالطة والافتراء، فقال:

«لقد بلغ تحريف بعض المستشرقين لسيرة محمد ﷺ وصحابته مبلغاً غطّى على الواقع، وأخفى الصورة الحقيقية، وذلك على الرغم مما يزعمه المستشرقون من اتّباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد».

وقد ضرب هذا المستشرق المسلم أمثلة عديدة لما يثيره المستشرقون المغرضون من شبهات، وما ينشرونه من مفتريات تقود في النهاية إلى تخبّط علمي وتناقض فيما يذهبون إليه، ثم ردّ عليهم بأسلوب علمي هادف رصين، مما يبيّن وجه الإسلام المشرق ويوضّح حقائقه الدامغة.

وقد اتّخذ الفونس ايتين دينيه من (لامانس) مثالاً على صحة ما ذهب إليه من زيف أبحاث المستشرقين المغرضين وسوء مقاصدهم، وردّ عليه في كل ما ذهب إليه من مفتريات ردوداً دامغة تشفي صدور المؤمنين.

٢ ـ **اللورد هدلي**: المستشرق الإنكليزي الذي درس اللاهوت ثم درس الإسلام، ليبلغ في النهاية حدّاً من القناعة يفرض عليه إعلان إسلامه واعتزازه به وممارسة شعائره، وقد أدّى فريضة الحج، ووصف مشاعره بعد ذلك ليقول:

«فكّرت أربعين سنة كي أصل إلى حل صحيح حتى وصلت إلى الإسلام، ولو أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنجليزية محمدياً حقاً بقلبه وروحه؛ لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك، لأن الناس سيُقادون بدين حقيقي، وإني أشكر الله إذ استقرّ الإيمان الصحيح في قلبي وملك رشدي، وأقنعني نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها من قبل، وبتحققي من عظمة الإسلام ومجده أصبحت كرجل فرّ من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار».

ويقول اللورد هدلي المستشرق المنصف الذي هداه الله للإسلام عن النبي ﷺ:

«نحن نعتبر أن نبي الإسلام، نبي بلاد العرب، ذو أخلاق متينة وشخصية حقيقية كاملة، وبما أننا في احتياج إلى أنموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام تسد تلك الحاجة. حياة كمرآة تعكس علينا التعقّل الراقي، والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم، والعفو والوداعة، وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوّن الإنسانية».

ويؤكّد اللورد هدلي أن كثيراً من الناس وبخاصة المفكّرين منهم في العالم الغربي مسلمون، وأن ظروفاً شتّى تحول دون إعلان إسلامهم والتصريح به، فيقول:

«إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد، والرغبة في الابتعاد عن المتاعب الناشئة عن التغيير منعهم من إظهار معتقداتهم».

٣ ـ **توماس كارليل**: وهو أحد كبار كتّاب الإنجليز، ألّف كتاب (الأبطال) الذي تحدّث فيه عن عدد من الشخصيات العالمية في مختلف العصور، أفرد فصلاً خاصاً تحدّث فيه بإنصاف وانتماء وحماسة عن حياة النبي محمد ﷺ، فقال:

«من العار أن يصغي أي إنسان متمدّن من أبناء هذا الجيل إلى وَهْمِ القائلين بأن الإسلام كذب، وأنّ محمداً ﷺ لم يكن على حق».

٤ ـ **هنري دي كاسترو**: المستشرق الفرنسي الذي درس الإسلام واطّلع على جوانبه الخيّرة وفضائله التي لا تنتهي، فبات على يقين أنه دين الحق، وأعلن ذلك عبر كتابه (خواطر وسوانح) الذي نشره عام ١٨٩٦م في فرنسا، وقد قال فيه بأسلوب الواثق وفكر الباحث الرصين:

«لقد آليتُ على نفسي أن ألتزم الدقة والعمق، ولو أنني اتّبعت مجرّد الظواهر، وقضيت على الأمور بغير تأمّل وتدقيق؛ لجاء كتابي مذموماً، ورماني المستشرقون بالخفّة والطيش، لذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصية محمد ﷺ وتقرير حقيقته، علّني أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدق محمد ﷺ وعلى أمانته المتّفق عليها تقريباً بين جميع مؤرّخي الديانات».

ويقول عن النبي الكريم ﷺ:

«إن محمداً ما كان يقرأ ويكتب، بل كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً، وهو وصفٌ لم يعارضه فيه أحد من معاصريه».

ويقول هنري دي كاسترو عن القرآن:

«والعقل يحتار كيف يتأتى أن تصدر الآيات من رجل أمّي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنىً. لقد أتى محمد ﷺ بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، والقرآن الذي نزل على محمد ﷺ لايزال إلى يومنا هذا سرّاً من الأسرار التي تعذّر فك طلاسمها».

٥ ـ ليوبولد فايس: المستشرق النمساوي المعاصر الذي كان يدين باليهودية، ثم هداه الله للإسلام بعد دراسة عميقة، وممارسة حياتية عاشها بين قبائل الأمازير وغيرهم في المغرب والشمال الأفريقي، كما عاش فترة واختلط ببعض القبائل العربية في جزيرة العرب، وقد عدّ القبائل في بوادي الحجاز من أنقى ما عرف من قبائل العرب، وأكثرها انتماءً للأصالة العربية والعقيدة الإسلامية.

حمل المستشرق المنصف بعد إسلامه اسم «محمد أسد» وألّف عدّة كتب عن الإسلام في طليعتها كتاب (الطريق إلى مكة) الذي سمّاه فيما بعد (الطريق إلى الإسلام) قناعة بارتباطه بالعقيدة والفكر أكثر من الانتماء الجغرافي الذي يشير له المكان. ومن أشهر كتبه الفكرية (الإسلام ونظام الحكم) بيّن فيه بالتفصيل صلاحية الإسلام للمجتمع كافة وللتطبيق في الحكم نظاماً ومنهاج حياة.

لقد كان للرجل نشاط موفور ومبرور بإذن الله في مختلف الجامعات

التي كانت تدعوه من مختلف بقاع الدنيا، يتحدّث من منابرها عن الإسلام ومميزاته، كما كان يطلّ على الناس من خلال عدد من شاشات التلفزة التي رحّبت به.

أمضى جانباً من حياته مندوباً لدولة باكستان أوّل ما أنشئت في هيئة الأمم المتحدة لعدة سنوات، وقام بوضع مشروع الدستور لدولة باكستان بعد قيامها.

لقيت الرجل في مؤتمر إسلامي عام عُقِدَ في دمشق سنة ١٩٥٧، وكان على درجة من الفهم والوعي الحضاري الإسلامي، مما يؤكد للناس بعامة والمفكّرين بخاصة أنّ هذا الدين العظيم جاء للناس كافّة، وأنّ مَن يؤمن به ويعرفه بعمق يمكن أن يسهم في تقديم صور من الحضارة وألوان من الفهم السويّ للحياة الإسلامية الوضيئة، مما يثري المسيرة الإنسانية ويدفع بها نحو التقدّم والازدهار.

إلاّ أن مما يؤخذ على الرجل في بعض آرائه تأثّره ببعض مظاهر المدنية الغربية في بعض المواقف ـ على الرغم من نقده الشديد لها ـ مما يثلم فهمه ويجرح معرفته ببعض أحكام الشريعة التي لم تكن تروق له حسب ما وصل إليه من قناعات، إذ كان يناقشنا في معنى حديث رسول الله ﷺ: «إن المرأة إذا بلغت الحلم لا يجوز أن يظهر منها إلاّ هذا وهذا، وأشار عليه الصلاة والسلام إلى الوجه والكفّين»، غير أنّ محمد أسد يتوسّع في مساحة الإشارة فيقول (هذا) الأولى ليست للوجه وحده، وإنما للرأس كله، ولذا لا بأس كما يرى أن تكشف المرأة شعرها. و(هذا) الثانية ليست للكفّين فحسب، وإنما تستغرق الكفّين والرسغين والذراعين، فيباح لها أن تلبس القميص أو الثوب بنصف كم.

ومن الإنصاف أن نشير أنه كان يعرّي الحضارة الغربية وينعى عليها

انهيارها ودفعها للحياة الإنسانية للانهيار، ولقد بذلنا جهداً كبيراً وأجرينا معه نقاشاً طويلاً[1] لم نتوصّل فيه إلى تغيير رأيه وتبديل قناعته التي أشرنا إليها، نظراً لتأثّره بمظاهر الزينة لدى المرأة الأوروبية، ولبس الثياب التي رَضِيَتْ بها، مما يوفّر لها مزيداً من الحرية ويمنحها حركة ونشاطاً أكثر.

ولست أدري هل غَيَّر الرجل أفكاره هذه فيما بعد، قبل أن يلقى الله أم أنه ظلّ عليها حتى وافته المنيّة رحمه الله.

والذي أعرفه عبر معارفه ومحبّيه والمعجبين بثقافته العميقة وفكره المستنير النابع من عقيدة صافية أنّ الرجل وصل إلى مستوى من الفهم السويّ لدين الله، بحيث ترجم (معاني القرآن الكريم) ترجمة يعدّها المطّلعون من العلماء والمثقّفين: الأروع والأفضل بين الترجمات التي ظهرت حتى الآن باللغة الإنجليزية.

٦ ـ **روجيه جارودي**: الفيلسوف الفرنسي الماركسي المعاصر الذي درس اللاهوت أول ما درس، وبحث في الكتب السماوية المختلفة، ثم اعتنق الفكر الماركسي والاشتراكية العلمية كما يسمّيها أتباعها، وكان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، ولما أراد الله له الخير اطّلع على الإسلام والقرآن ودرسهما دراسة متأنّية قادته في النهاية إلى الإيمان الذي أشرق في قلبه، وهو يقول:

«لقد بحثت عن الحقيقة خمسين عاماً ثم وجدتها بعد ذلك في الإسلام».

---

(١) كان يرحمه الله يُحسن العربية حديثاً وقراءة وكتابة في مستوى يفهم معه المرء القارئ له أنه ملمٌّ باللغة، مدركٌ لكثير من الأحكام، وقد سعدتُ بالجلوس إليه أكثر من مرة والتعرُّف عليه والاستماع لأفكاره وآرائه.

وقد تسمّى باسم (رجاء جارودي) وتزوّج بسيدة عربية مسلمة من فلسطين، تعينه على مسيرته الفكرية السياسية وحياته الاجتماعية الجديدة.

ويلقى رجاء جارودي المفكّر الفرنسي المسلم مقاومة من التكتّلات الدينية المتعصّبة في فرنسا، وخاصة في المحافل اليهودية التي تضع العراقيل في وجه محاضراته وكتبه، وتعمل جهدها على منع انتشار فكره المؤمن ورأيه الرصين بمختلف الوسائل وشتّى الأساليب، وهو مصرٌّ على ما يراه، مصمّم على ما يعتقد أنه الحق.

ولقد أتيح لي بتوفيق من الله أن ألقى الرجل أكثر من مرة في أكثر من بلد عربي، وأن يلقاه غيري من العاملين في الحقل الإسلامي والمهتمّين بالشؤون الفكرية الإسلامية، فوجدنا فيه إيماناً مشرقاً راسخاً بعَظَمَةِ الإسلام، وقناعة واثقة بعمومه للناس كافة، وشموله لمختلف شؤون الحياة، وأنه دين الحق الذي جاء به الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى النبي الخاتم محمد ﷺ.

كما لمسنا بمرارة ما يحزّ في نفس المفكّر المسلم من ألم لانصراف السفارات العربية في عواصم الغرب إلى مزيد من التشرذم والشتات، حيث لا يلتقي العاملون في هذا السفارات على الإيمان والعمل للإسلام والدعوة إليه، لأن كل مسؤول فيها منصرف للدعوة إلى الحاكم الذي بعث به والسيد الذي أرسله إلى هذه العاصمة أو تلك، مما يجعل الجهود مبعثرة والصورة ممزّقة، وقد دعا هذا العالم الجليل والمفكّر المسلم العميق لإنشاء مركز إسلامي متخصّص في أوروبا مهمّته التصدي للدعاية الصهيونية من وجهة نظر إسلامية، سواء ما كان له ارتباط بعظَمَة الإسلام أو بحقّ أمتنا في فلسطين، حيث تجني السياسة الغربية علينا في زعمها حق اليهود في ديارنا؛ ودعمه بكل وسائل الدعم المادية والمعنوية.

وقد تنبّه المفكّر الفرنسي المسلم رجاء جارودي فيما حاضر أو كتب إلى أمر هام ذي علاقة بأسلوب عرض آرائنا ومعطياتنا على الساحة الغربية، حيث يتناول ذلك العرض ميدانين كلاهما لا يعود على ديننا وأمتنا وحياتنا بغير الخسران والفشل الذريع:

الميدان الأول: دعوة كل سفارة عربية في الغرب لسياسة الزعيم الذي تمثّله والحاكم الذي تدين بالولاء له، مما يعكس ألواناً شتّى متناقضة من السياسات وآراء مختلفة لا يوحّدها هدف ولا تجمعها غاية، لأنه كما قيل: ولا يستقيم الظل والعود أعوج!.

الميدان الثاني: الاكتفاء بعرض ما في البلد العربي من ألوان التقدّم التقني والازدهار العمراني في مجال الهندسة والأبنية والمدن، لنظهر في عيون الغربيين أننا متحضّرون، وهو ما يعطي النتيجة العكسية تماماً، لأن لدى الغرب الكثير من مثل هذه الصور المدنية العمرانية التقنية، ولا يُعقل أن يأخذ الغرب عنّا ما قد سبقنا في مضماره بسنين طويلة، وهنا لابد من الإشارة إلى أن الغرب بحاجة ماسّة إلى لمسة حضارية إنسانية، وجرعة إيمانية مكثّفة تعيده إلى الصواب، وتحول دون مزيد من جنوحه وانصرافه إلى الدمار والضياع!.

ويؤكّد جارودي أن فرص انتشار الإسلام في أوروبا في الوقت الراهن أفضل بكثير منها في القرن السابع الميلادي، ولكن الذي يصدّ الناس عن الإسلام: السلوك المنحرف لبعض أبنائه والمنتمين إليه، والتمزّق الذي يعيشه أبناء الدين الذي يدعو للوحدة ويحثّ على التماسك والعمل، والتعاون المنظّم على البر بكل مدلولاته، وعلى التقوى بأعمق معانيها.

ويشير جارودي فيما يكتب ويحاضر ويتحدّث إلى أنّ مما لفت انتباهه وأقنعه بعظَمَة الإسلام أن الرسول ﷺ جاء بدين عظيم هو أساس الأديان، حيث لم ينكر الأنبياء السابقين، بل جاءت رسالته متمّمة ومكمّلة للرسالات السماوية السابقة قبل أن يلحق بها التحريف أو تعبث بها يد التغيير والتزوير والبهتان.

الفريق الثاني:

وهو الذي درس الإسلام واطلع على كثير من جوانبه المشرقة، فاعترف بما وعى وأعلن إعجابه بما توصّل إليه، وبذل جهداً حميداً في الدفاع عن الإسلام ونبيّه، وعن المسلمين وحضارتهم، دون أن يعلن إسلامه أو يصرّح به لأسباب لسنا هنا في مجال بحثها ومناقشتها.

ومن أشهر هؤلاء:

١ ـ **تولستوي**: أديب روسيا وكاتبها الكبير، وقد كتب رأيه في الإسلام بعد أن أُعجب به واطمأنت نفسه إليه، وهو الذي دافع عن رسول الإسلام وعن دين الله دفاع المنصفين، فعاقبه البابا بالحرمان، مما جعل الشيخ محمد عبده رحمه الله يرسل له رسالة يحييه فيها، ويذكر له موقفه المشرّف الكريم. وقد جاء في تلك الرسالة:

«أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي، لم نحظَ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نُحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نورٌ من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألّفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ووفّقك إلى الغاية التي هدف البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى به جنسه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنّة

الفطرة، وحينما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فاستعملوها فيما كدّر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرة في الدين مزّقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعتَ صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدّمتَ أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هادياً للعقول، كنتَ بعملك حاثّاً للعزائم والهمم، وكما كانت أراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المرشدون، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء كان مداً من عنايته للضعفاء والفقراء، وإنَّ أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد هو هذا الذي سمّاه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعترافٍ منهم أعلنوه للناس أنّك لست من القوم الضالين. فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم.

هذا وإن نفوسنا لشيّقة إلى ما يتجدّد من آثار قلمك فيما تستقبل أيام عمرك. وإننا نسأل الله أن يمدّ في حياتك ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوق النفوس إلى التأسّي بك في عملك. والسلام».

ومن أقوال الفيلسوف الحكيم تولستوي في النبي، التي يبيّن فيها عَظَمَة الرسول الكريم ويبدي فيها احترامه له وإجلاله:

«لاريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمّةً برمّتها إلى الحق، وإلى الخير، وإلى النور، وجعلها تجنح للسلام وتمتنع عن سفك الدماء، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق التقدّم والرقيّ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام والتقدير».

٢ ـ **الدكتور مايكل هارت**: أمريكي المولد والجنسية، حصل على عدد من الشهادات في مختلف حقول المعرفة والعلوم (ليسانس في الرياضيات من جامعة كورنيل عام ١٩٥٢، وليسانس في القانون من جامعة نيويورك عام ١٩٥٨، وماجستير في العلوم من جامعة إيدلفي عام ١٩٦٩، ثم حصل على دكتوراه في الفلك من جامعة برينستون عام ١٩٧٢، وقد عمل في مركز أبحاث الفضاء في ولاية ميريلاند، وفي المركز القومي لأبحاث طبقات الجو في كولورادو، وفي أكبر مرصد للأفلاك في كاليفورنيا، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية، وعضو الجمعية الفلكية في علوم الكواكب).

يعتبر الدكتور هارت غربي التربية والثقافة والتوجّه والرأي والحس العام، ولذا فهو ملتزم ضمن الإطار العام الذي يميّز المثقّف الغربي، ويعتبر أمريكا ثقافياً جزءاً من العالم الأنكلوسكسوني خصوصاً والأوروبي الغربي عموماً، وهي نظرة استعلائية تعتبر ذلك العالَم متفوّقاً على غيره بثقافته المتميّزة ذات الجذور التي تعود للعهد الكلاسيكي اليوناني، باعتبار أن العلوم والمعارف الحديثة تعود لعصر النهضة الذي يُعَدُّ بعثاً للعصر الكلاسيكي اليوناني، مع الإصرار على إنكار ما للحضارة الإسلامية من فضل على الحضارة المعاصرة بما قدّمه أعلامها من معطيات وثمار مفيدة.

وهو من أتباع الفلسفة الذرائعية ـ وهي حركة فكرية أمريكية أسّسها بيرس ووليم جيمس ـ ومن تعاليمها المميّزة أن معاني المفاهيم يجب أن يُبحث عنها في تطبيقاتها العملية، وأن وظيفة الفكر وعمله هو الإرشاد للعمل، وأنه يحكم على صدق الفكرة بنتائجها في المستقبل.

وعلى الرغم من ظهور روح الكراهية للحضارة العربية الإسلامية

فيما كتب هارت، إذ أنه قدّم البابا إربان الثاني مثير الحروب الصليبية، وشارل مارتل الذي أوقف الزحف العربي الإسلامي في أوروبا، وإيزبيلا التي قضت على العرب والمسلمين في إسبانيا، وجنكيز خان الذي دمّر الحضارة العربية الإسلامية العباسية، وغير ذلك من روح التعصّب الصليبي الأعمى؛ على أنهم من المئة الأوائل في العالم، وأنهم من أعلام العالم الذين لهم فضلٌ عليه ودور في بنائه؛ إلاّ أنه من الإنصاف أن نقول: لقد كان الرجل منصفاً أن قدّم محمداً ﷺ على (المئة الأوائل) الذين اختارهم هارت قادة ومبدعين وأعلاماً أفذاذاً في مجالات عطائهم وحقول أعمالهم على اختلاف تلك الأعمال.

ومن أقواله في الرسول الكريم: «إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يُدهش القرّاء، ولكنّه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح على المستويين الديني والدنيوي، لقد أسّس محمد ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام، ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً على وفاته، فإن تأثيره لايزال قوياً وعارماً»[1].

وللفريقين الأول والثاني الفضل في الحفاظ على كثير من جوانب التراث الإسلامي ومعطياته الحضارية، وبعث كثير من المخطوطات وتحقيقها وطبعها ونشرها، بعد أن كانت ومازال كثير منها محفوظاً في كبريات المكتبات في العالم.

الفريق الثالث:

بقي الفريق الثالث الحاقد الذي أعماه التعصّب وطمس الهوى على

---

(١) راجع كتاب (المئة الأوائل) لمايكل هارت، ترجمة الأستاذ خالد أسعد يحيى والمحامي أحمد غسان سبانو، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

بصيرته مما دعاه إلى تجسيد ما توهّمه خطأ، وإبراز ما ظنّه عيباً في دراسات مشبوهة بعيدة عن روح البحث العلمي والدراسة الموضوعية.

وقد نذر هذا الفريق نفسه للضلال يدافع عنه، وللطائفية المقيتة يدعو لها، والتعصّب الأعمى، يعلنها دون خجل، بحيث راح يذبح الحق والعدل والخير والجمال على مذبح الأحقاد، حتى مضى يختلق السيئات اختلاقاً، ويتوهّم العيوب توهُّماً، وتمادى في محاولات الدسّ والتشويه دون احترام للعقل أو التزام بالأمانة العلمية.

ومن أشهر هؤلاء المضلّلين من المستشرقين:

ـ كارل بروكلمان Karl Brockelmann :

مستشرق ألماني معاصر، ألّف أكبر موسوعة في تاريخ الآداب العربية باللغة الألمانية، ومن أشهر مؤلّفاته: (تاريخ الشعوب الإسلامية) المترجَم من الألمانية إلى الإنجليزية؛ كان عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق، وله حشد كبير من الأخطاء العلمية والتاريخية، تناولَتْها بالنقد والتمحيص (مجلة الإسلام) التي تصدر بالإنجليزية في كراتشي بباكستان ـ العدد الصادر في أول أيار (مايو) سنة ١٩٥٨.

ـ الفرد جيوم A.Geom :

مستشرق إنكليزي معاصر اشتهر بالتعصُّب ضد الإسلام، حاضر في جامعات إنجلترا وأمريكا، وتَغْلب على كتابته وآرائه الروح الصليبية، ومن كتبه (الإسلام). وقد تخرّج عليه الكثيرون ممن أرسلتهم الحكومة المصرية في بعثات للخارج لدراسة اللغات الشرقية.

ـ هـ. ا. ر. جب H. A. R. Gibb:

أكبر مستشرق إنجليزي معاصر، كان عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، وهو الآن أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفرد، له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة، ويعتبر من أخطر المستشرقين المعاصرين، ومن كتبه (طريق الإسلام) الذي ألّفه بالاشتراك مع آخرين، وقد تُرجم من الإنجليزية إلى العربية، وكتاب (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) وقد صدر عام ١٩٤٧، وأعيد طبعه أكثر من مرّة وتُرجم إلى العربية، وله كتاب (المذهب المحمّدي) الذي صدر عام ١٩٤٧، وأُعيد طبعه، وله كتاب يصدر في أجزاء بالاشتراك مع آخرين وعنوانه (الإسلام والمجتمع الغربي)، وله عدد من المقالات المتفرّقة.

س. م. زويمر S.M. Zweimer:

مستشرق مبشّر اشتهر بعدائه الشديد للإسلام، مؤسس مجلة (العالم الإسلامي) الأمريكية المشهورة، ومؤلّف كتاب (الإسلام تحدٌّ للعقيدة)، وقد صدر عام ١٩٠٨م، وهو ناشر كتاب (الإسلام)، الذي ضمَّ مجموعة مقالات قدّمت للمؤتمر التبشيري الثاني في سنة ١٩١١ بلكهنؤ في الهند. ونظراً لجهوده في خدمة الصليبية، وتقديراً لجهوده (التبشيرية) أنشأ الأمريكيون وقفاً باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشّرين.

ـ ادوين كالفرلي E. Calverly:

مستشرق أمريكي معاصر متعصّب معروف باتجاهاته الصليبية السافرة، باشر التدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، من محرّري (دائرة المعارف الإسلامية)، ورئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي.

آرثر جيفري Arthur Jeffry :

معروف بتعصبه السافر ضد الإسلام والمسلمين، ومن كتبه (مصادر تاريخ القرآن)، صدر بالإنجليزية في سنة ١٩٣٧، و(الكلمات الدخيلة في القرآن)، صدر بالإنجليزية، و(القرآن ككتاب ديني)، صدر بالإنجليزية في سنة ١٩٥٢.

آرنولد توينبي Arnold Toynbee :

مستشرق إنكليزي معروف باهتماماته التاريخية، وتميّز بها، وله أخطاء ومغالطات كثيرة فيما كتب عن الإسلام والرسول في كتابه المعروف (دراسة في التاريخ)، ويعتبر من الكتب الشديدة الخطر، لأن كثيراً من الناس في البلاد الشرقية والعربية بخاصة يعدُّونه أحسن دراسة (موضوعية) للتاريخ في العصر الحديث.

هـ. لامانس H. Lammens :

مستشرق فرنسي أقام في بيروت، وأخرج عدداً من الكتب عن الإسلام، كان من عتاة المزوّرين المفترين الذين وصفوا الرسول الكريم بأبشع الصفات، وألصقوا بالإسلام التهم، ونسبوا إليه العيوب.

كان كثير التحامل بعيداً كلّ البعد عن روح الإنصاف، أملى عليه الحقد أن يصف الرسول ﷺ بأنه كان نؤوماً. وهو الذي كان يمضي الليل في العبادة والتهجُّد، وأنه كان أكولاً. وهو الذي كان يصوم أياماً من كل أسبوع لما في ذلك من تربية الجسد والنفس معاً. وكان لامانس يضفي على أعداء الإسلام من أمثال أبي جهل وأبي لهب وأُبيّ بن خلف والمنافقين أفضل الصفات وأشرفها، ويلصق بالرسول الكريم وصحابته أبشع النعوت، مما يؤكّد حقد الرجل وبُعده عن روح البحث العلمي والأمانة والموضوعية.

أوعية السم وألوية العداوة:

تقوم للحركة الصليبية العالمية مؤسسات كبرى تهتم بالشؤون العلمية والفكرية، متخصصة في شؤون الإسلام والمسلمين: عقيدة وحضارة وتاريخاً، لتقدِّم لنا ذلك كلّه في أوعية نقية مزخرفة يخالط محتوياتها السمّ الزعاف، وترفع مثل تلك المؤسسات ألوية العداوة الضارية، يحملها رجال تظاهروا بالموضوعية والتجرُّد، واتّشحوا بلباس البحث العلمي والدراسات الهادفة.. ومن أشهر هذه المؤسسات المشبوهة والأوعية السامة والألوية المعادية (دائرة المعارف الإسلامية) التي ضمّت فرق العمل فيها عدداً كبيراً من الصليبيين المتعصّبين الذين يختلفون قومية ولغة ومذهباً، ولكنهم يضربون عن قوس واحدة تتمثّل في الهجوم على الإسلام، وبثّ روح الإحباط بين الأجيال الإسلامية المتعاقبة، والدعوة إلى ضرورة بقاء الغرب مسيطراً على مقدّراتنا، واعتباره الأستاذ القدوة في مسيرة الكون ونظام الحياة.

إنك لتجد في مثل هذه المؤسسات اليهودي والنصراني معاً، والكاثوليكي والبروتستانتي، والألماني والإنجليزي والأمريكي والفرنسي والهولندي وغيرهم، يجمعهم: كيف يكيدون للإسلام والمسلمين وكيف يشوِّهون حقائق الدين ومسيرة التاريخ وسمعة الرجال الأفذاذ من بُناة الحضارة وصانعي التاريخ.

ومن أشهر المحرّرين في (دائرة المعارف الإسلامية) هذه:

ج. ا. ا. ايزنبرج J.Eisenberg	و. ايفانو W.Ivanow
ف. بابنجر F. Babinger	ا. باجلياروA.Bagliaro
ج. بارث J. Barth	ر. باريت R. Part

ر. باست R.Passet	س. س. برج S.S. Berg
هـ. هـ. برو H.H. Brau	ا.ل. بروفنسال E.L. Provensal
م. بلسنر M.Plessner	ف. بول F.buhl
ت.ف بوتشنر T.V. Buchner	ا.س. بيفريدج A.S. Beveridge
س. هـ. بيكر S.H. Becker	ا.س. تريتون A.S. Tritton
ر. تشودي R.Chudi	توماس جوينبول Th. Juynboll

ا. جروهمان A.Grohman جودفروي ديمومبنز Gaudefroy Demombynes

و. جوركمان W.Bjorkman	ب. جويل B.Goel
ج. ل. ديلافيدا G.L. Della Vida	دي بور De Boer
ديتريش Dietrich	هـ. ريكندورف H. Rekendorf
ك. ف. زيترستين K.V.Zettersteen	و. سبايز O.Spies
هـ. سبير H.Speyer	م. سترك M.Strech
م. سميث M.Smith	سنوك هورجرونجه Snouk Horgronje
ر. ستروتمان R.Strotman	ب. شريك B.Schrieke
ج. شليفر J.Shlaifer	س. فان. اريندونك C.Van.Arendonk
هـ. فوخس H.Fuchs	ك. فوللرز K.Vollers
ف. فوكا V.Vocca	ا. فيشر A.Fisher
كارل بروكلمان Karl Brockelmann	ر. ا. كرن R.A. Kern
ا. كور A.Cour	ج. هـ. كريمرز J.H.Kramers
لونجوورت دايمز Longworth Dames	ت. لويشي T.Luwichi

ج . مارسايز G.Marsais	ت . منتزل T.Menzel
ف . مينورسكي V.Minorski	هـ . س . نيبرج H.S. Nyberg
و . هارتنر Hartner	م . هوتسما M.Hautsma
ج . هوروفيتس J.Horovits	ا . هونجمان A.Hongman
ا . ج . هويسمان A.J.huisman	ب . هلر B.Heller
و . هيفننج W.Heffening	هيورت Huart
ج . ووكر J.Walker	ب . وتيك P.Wittek
ت . هـ . وير T.H.weir	ا . ج . أربري A.J.Arberry
بارون كارا دي فو Baron Carra de Vaux	جولد زيهير Goldziher
لوي ماسينيون L.Massingnon	د . ب . ماكدونالد D.B.Macdonald
د . س . مرجوليوث D.S.Margoliouth	ر . ا . نيكولسون R.A.Nicholson
هنري لامنس اليسوعي H.Lammens	يوسف شاخت J.Shaeht

المستشرقون أعلام في مجامعنا العلمية العربية والإسلامية :

ومما يثير الدهشة ويبعث على العجب أن يكون عدد من المستشرقين أعلاماً في مجامعنا العلمية العربية والإسلامية، التي تفتح لهم أذرعها وتفسح لهم الصدارة في ندواتها ولقاءاتها، وترحب بما يقدمون من فكر ورأي وعطاء، تحمله صفحات مجلات تلك المجامع ومنشوراتها، الأمر الذي يشير لأحد ثلاثة أسباب أو لها مجتمعة :

١ ـ السماحة التي يتميز بها دين هذه الأمة، وسعة آفاق علمائها الذين يرغبون ـ كما هم مأمورون شرعاً ـ أن يلتقطوا الحكمة أنى كان مصدرها .

٢ ـ الغفلة التي تنتابنا أحياناً عندما نقرأ لعالم أو باحث أجنبي يثني على عَلَم من أعلام حضارتنا، أو موقف من مواقفنا التاريخية، فنفسح المجال لعطائه دون التنبّه لما قد يفرزه هذا العالم من غثاء، أو ما قد ينفثه من سموم تترك أسوأ الأثر في ثقافتنا وإعداد أجيالنا المستقبلية.

٣ ـ إبراز هذا النمط المغرض من المستشرقين والثناء على أفكارهم وآرائهم عبر وسائل الإعلام وبأقلام غير إسلامية، تحب لمثل هؤلاء أن يكونوا في مركز التوجيه والصدارة في مسيرتنا العلمية والثقافية.

ومن الإنصاف أن نذكر أن لبعض هؤلاء المستشرقين ـ كما أشرنا ـ دوراً في الحفاظ على بعض مصادر التراث الإسلامي ومراجع اللغة العربية وآدابها، مما يستحقون معه الشكر والتقدير، ونحن مأمورون ديناً وعبادةً أن نعدل حتى مع خصومنا، وأن لا نبخس الناس أشياءهم.

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين الأعضاء في المجامع العلمية العربية الإسلامية:

١ ـ هارتمان Hartman عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق.

٢ ـ م. هوتسما M.Hautsma عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق.

٣ ـ هـ. ا. ر. جب H.A.R.Gibb عضو في المجمع اللغوي بمصر.

٤ ـ ا. ج. فينسينك A.J.Wensik عضو في المجمع اللغوي بمصر.

٥ ـ لوي ماسينغنون L.Massingnon عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي المجمع اللغوي بمصر.

٦ ـ د. س. مرجوليوث D.S.Margoliouth عضو في المجمع العربي بدمشق، وفي المجمع اللغوي بمصر.

٧ ـ ر. ا. نيكولسون R.A.Nicholson عضو في المجمع اللغوي بمصر.

اليهود ودورهم في احتواء الاستشراق وتسخيره لخدمة أغراضهم:

التسلل المشبوه الذي يمارسه اليهود داخل الدول والأحزاب والمؤسسات السياسية والاقتصادية والمنظمات الاجتماعية والإنسانية، بالإضافة للوسائل الإعلامية المختلفة؛ لم يعد سرّاً خافياً على أي متابع لما يجري في هذه المجالات على تعددها واتّساعها.

والأمر الذي يهمّنا أن نبرزه هنا التسلل اليهودي للقيادات الدينية والفكرية ذات الأثر في صناعة العقل ومسيرة الأجيال، ومن ذلك ما فاجأ به العالم أجمع الكردينال (بيا) الذي أقنع البابا بنظريته الداعية إلى تبرئة اليهود من دم المسيح، وإعلان عدم مسؤوليتهم عن صلبه، وهو أمر يتنافى مع المعتقدات المسيحية عبر قرون عديدة من الزمان؛ ولم يفطن المسيحيون في العالم إلا بعد حين من الإعلان البابوي عن تبرئة اليهود أن الكاردينال (بيا) كان يهودياً استطاع التسلّل إلى المؤسسة المسيحية العالمية، ليسرّب آراءه وأفكاره لصالح اليهود، بعد أن أصبحت التبرئة معتقداً معتمداً في عقيدة بعض الطوائف المسيحية.

وفي مجال الاستشراق وحقوله العديدة استطاع اليهود أن يتسللوا في إطار أوروبيتهم وجنسياتهم المختلفة، دون أن يتميّزوا بيهوديتهم أو يعلنوا عن انتمائهم التوراتي، ليكون لآرائهم آثار أعمق، ولأفكارهم تأييد أكبر.

ويشير الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث) إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال اليهود على الاستشراق. وتتلخص هذه الملاحظة في «أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية؛ أما الأسباب الدينية فإنها تتمثّل في

محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قِيَمه بإثبات فضل اليهودية عليه، وذلك بادّعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول. أما الأسباب السياسية، فإنها تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانياً»[1].

متابعة حياة المستشرقين وتمحيص مواقفهم:

يقتضي واجب الأمانة العلمية والدقة في البحث أن يتابع الدارسون والمفكّرون ما يقع في عالم المستشرقين من أحداث وتطوّرات وتغيير، وذلك حرصاً على تقديم الخبر الصادق والرأي الصائب في هذا المجال، ولئلا يقع الخلط بين الآراء تجاه موقف أو أكثر لهذا المستشرق أو ذاك.

وأقرب مَثَل على ما ذهبنا إليه ما ورد في كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) عن المستشرق (آلفونس ايتين دينيه) بأنه: شديد التعصّب ضد الإسلام[2]، في حين قدّمته مجلة الأمة القَطَرية[3] لنا على أنه «قد درس الأديان وقارن بينها، فلما تيقن أن الإسلام دين الحق والصدق آمن به، وأشهر إسلامه، وخدم الإسلام بمؤلفاته ودراساته».

والسبب في هذا التناقض أن طبعة الكتاب المشار إليه كانت الخامسة، وقد صدرت عام ١٩٧٠، في حين صدر العدد الثامن والأربعون من مجلة الأمة عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. ومعنى ذلك أن الفرق بين المصدرين أربعة عشر عاماً، كان المستشرق خلالها قد أسلم وحسن إسلامه، وآمن قناعة

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (كتاب الأمة)، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ص ٤٩، ٥٠.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، للدكتور محمد البهي، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٠م.

(٣) مجلة الأمة ـ قطر، عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

بدين الحق، فانبرى يدافع عنه وعن نبيّه، ويُظهِر الوجه المشرق للرسالة الخالدة.

ومثل هذا الذي نشير إليه ما يتناول به بعض الكتّاب والمفكرين لدينا العالم الفرنسي اليساري روجيه جارودي، الذي أعلن إسلامه بعد دراسة ودراية وقناعة، فهم يبحثون عن موقف من مواقف الخطأ عنده، أو ثغرة من ثغرات الضعف لديه ناتجة عن رواسب الماضي وتراكم الثقافات، فيعملون في توجُّهه وفكره طعناً وتجريحاً، بدل التنبيه والنقد المنصف الذي يبيّن ما للرجل من حسنات، وما يقع فيه من خلط أحياناً دون سوء نية.

إننا بحاجة إلى دراسة أحوال مَنْ يسلم من المستشرقين، ومتابعة ما يقدِّمونه من عطاء فكري لتصويب مسيرتهم والحيلولة بينهم وبين الزيغ والضلال أو الوقوع فيما لا يجوز أن يقعوا فيه وهم لا يشعرون.

ومثل هذا التوجه يحتاج إلى إقامة علاقات وجسور اتصال لا تنقطع؛ ليكون أمثال هؤلاء العلماء على صلة برجال الفكر من علماء العربية والإسلام، وبالمؤسسات العلمية الفكرية ذات التوجُّه السويّ الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه، مما يزيل الكثير الكثير من الآراء المغلوطة والفكر الخاطئ السقيم.

* * *

الطائفيون من الكتاب والمفكرين
ودورهم في تزوير التاريخ

الطائفيون من الكتّاب والمفكرين
ودورهم في تزوير التاريخ

ينقسم النصارى في بلاد العرب من حيث اتّجاهاتهم الفكرية وانتماؤهم الوطني وولاؤهم السياسي إلى فئات عديدة، يمكن الإشارة إليها وإلقاء الأضواء عليها وفق ما نعرف وما نطالع في المكتبة، أو ما يطالعنا في المسيرة الحياتية في ديار العروبة والإسلام.

ففريق منهم يرى أنه ينتمي إلى الجذور العربية الأصيلة وهو كذلك، منحدراً من لخم وغسان وبني تغلب، وغيرها من القبائل العربية في أرض العراق وبلاد الشام.

وفريق يرى أن انتماءه يرجع لبعض الدول الصليبية القديمة، وهو كذلك أيضاً، معتزّاً بهذا الانتماء، رافضاً أن يكون له صلة بالعرب والعروبة، ولا علاقة له بحضارة الإسلام وأمة الضاد والقرآن.

ولا نحب أن نحدّد موقع هذا الفريق أو موطن ذاك، ولكنا نبيّن ذلك من سياق الموضوع ومجريات الأحداث.

جورجي زيدان.. اختفى خلف (الهلال) فأفسد!

لقد أسّس جورجي زيدان أكبر دار للطباعة والنشر والتوزيع في العالم العربي إذ ذاك، وكان ذلك عام ١٨٩٢، وكان بارعاً داهية حين سمّاها دار الهلال، لا دار الصليب، لكي تتسلّل تحت هذا الشعار إلى كل بيت، ويحملها كل طالب علم باحث عن معرفة، وتمكّن بذلك من دسّ السم في الدسم، ومسخِ كثير من الحقائق، وتشويهِ كثير من تقاليدنا المنبثقة من عقيدتنا المستمدّة من دعوة الله.

ولقد بيّنت الآثار السلبية لدار الهلال في كتابي (رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر)، حيث أدى هذا الضياع إلى تضليل الجيل وتفسيخ المجتمع ودفع المرأة في ديار العربية والإسلام إلى مزيد من الانحلال والضياع.

أما حديثي هنا فهو عن جورجي زيدان المؤرِّخ الذي أخذ عنه كثير من واضعي المناهج ومؤلّفي الكتب المدرسية في ديار الإسلام، حتى جاءت كتبهم بين أيدي الطلاب مؤدية للغرض الذي أرادته دار الهلال ومؤسِّسها؛ من طمس معالم الشخصية المسلمة وتزوير كثير من أحداث التاريخ.

لقد كان جورجي زيدان متعدِّد الأنشطة والإنتاج في مختلف حقول العطاء القلمي المتّصل بحياتنا تاريخاً وأدباً ولغة وحياة اجتماعية، فقد

ألّف كتابه (تاريخ التمدُّن الإسلامي) الذي تحدَّث فيه عن جوانب من حياتنا في الماضي، وصوَّر فيه من مظاهر التمدُّن في تاريخنا ما يحسب القارئ أن الرجل حريص على إبراز معالم حضارتنا، ولكنه دسّ بين السطور ما يكدر النفوس ويعكر الصدور، وهو ما سآتي إليه لعرضه بعد قليل.

كما ألّف كتاباً آخر عن (تاريخ آداب اللغة العربية) وخلط فيه بين حق وباطل، مما عوّدنا عليه فيما يقدم.

ومن أشهر ما كتبه جورجي زيدان مجموعة من القصص التاريخية كانت إلى عهد غير بعيد من أهم وأخطر وسائل التثقيفٍ والتسلية للجيل المسلم المنكود.

لقد وضع مؤسّس دار الهلال تسع روايات تاريخية، تناول في كل رواية منها تاريخ عصر من العصور الإسلامية، وصوَّره كما يحلو له معتمداً على كتب تاريخية شعوبية قديمة، وأوهام لا وجودٍ لها، ودسَّ حاقدٍ هو المنطلق والغاية لكل ما وضع من روايات.

والمتتبع لروايات جورجي زيدان يلاحظ أموراً هامة عني بها الرجل وهو يبرز حشداً من السلبيات والعيوب المنتقاة، ويخفي كثيراً من الجوانب الإيجابية والمآثر الهامة التي لم يعطها المؤرِّخ (الشهير) حقها من العناية والتركيز عليها، حتى ينسى الجيل الجديد المتتلمذ على رواياته وحكاياته تسلية (ودراسة) أعظم المآثر في تاريخ أمته وأفضل المعطيات في عقيدتها وحضارتها:

١ ـ أبرز جورجي زيدان كل ما قلّد فيه العرب الفرس والروم من

مظاهر الأبهة وبهارج الملك، حتى تبدو عهود الحكم الإسلامي المختلفة كغيرها من عهود الحكم، وهي تتطلّع إلى الدنيا قبل الآخرة، وإلى الحرص على نيل إعجاب الخلق قبل الحرص على نيل رضوان الخالق.

٢ ـ أغفل جوانب العظمة الحقّة والزهد الخالص والعدل المشرق المنبثق من عقيدة الإسلام وأخلاق القرآن، وقد ركّز على الجانب الشخصي لكل فضيلة ونسبها لصاحبها الذي يتحلّى بها، وكأنها طبع فيه وفطرة، لا أثر لدين الله أو عقيدة التوحيد في تأصيلها وغرسها في النفس المؤمنة المتطلّعة إلى ثواب الله ورضوانه.

٣ ـ ركّز على موضوع تأثّر العرب بالأمم الوثنية والنصرانية التي حولهم في المسكن والمأكل والملبس، ولم يشر إلى معطيات ومميزات اختصّ بها المسلمون دون سواهم من الأمم بسبب انطلاقهم في التصوُّر والعيش من حضارة التوحيد وثقافة القرآن، ولم يحاول أن يبرز الجانب الثقافي النقي بتجرد، والوجه الحضاري المشرق على أنه من ميزات الإسلام ودعوة القرآن.

٤ ـ أبرز الجوانب السلبية عند الحديث عن أدبيات (الرق) و(العبيد) و(الجواري) وأخلاقيات هذه الفئة وآثارها السلبية في المجتمع الإسلامي، ولم يشر إلى جوانب مشرقة من حياة الإخاء والتسامح والمساواة بين الناس في المجتمع الإسلامي الأمثل، كما عمّق المفاهيم السلبية لهذه الطبقة التي جاء الإسلام لحربها، وكان اعترافه بها اعترافاً مؤقّتاً محدوداً بزمان ومكان وظروف معيّنة، مرتبطة بأسباب سوء معاملة الأسرى المسلمين لدى الأمم الأخرى، يقابل ذلك حرص المسلمين على إذابة الاستعلاء والتجبّر والتميز؛ بالرحمة والرفق والمودّة مما لا مجال لذكره هنا والتفصيل فيه.

٥ ـ لم يعطِ جورجي زيدان (المؤرخ) للجهاد ـ غاية وهدفاً وأسلوباً ـ العناية الكافية لإبراز وجه الإسلام المشرق في هذا المضمار الحضاري الهادف، وإنما ركّز على القتل والقتال والغنائم والأسلاب، ليُبرز للإسلام وجهاً غير كريم، لم يُعرف به عند المنصفين من الكتّاب والمؤرّخين.

٦ ـ ألقى الأضواء المغرضة على الصراع على السلطة والمؤامرات التي كانت تدبَّر في الخفاء للوصول إليها، وبيّن أن ما يجري على الساحة العربية الإسلامية لم يكن وراءه سوى غرض الوصول إلى الحكم ومكتسباته، وأغفل جانب الأجر والثواب المنشود لدى طائفة من العلماء والحكّام الصالحين، ونفى بصورة أو بأخرى نماذج من الزهد في الحكم، والترفُّع عن زخرف العيش والتكالب على طلب الدنيا دون الآخرة.

٧ ـ عزا في كثير من المواقف التاريخية الحاسمة أن سبب انتصارات المسلمين في مواقعهم المختلفة إنما مردّه إلى نصرة فرد أو مجموعة من النصارى لهم، ولم يشر في أي موقف إلى أن الإقبال على الآخرة والرغبة في ثواب الله والحرص على جنّته هي سر النصر في مواجهة المسلمين لأعدائهم، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده في روايته (شارل وعبد الرحمن) عن فتح الأندلس، أن حبيبةَ قائد الملك لذريق ـ ملك الأندلس ـ أقنعته أن ينضم إلى جيوش المسلمين، ويخلّص بلادها من استبداد لذريق الذي كان بدوره ينوي اغتصابها وحرمان حبيبها منها لو قُدِّر له أن ينتصر.. ويختم جورجي زيدان الفصل الروائي المحبوك بعبارات مفتعلة حاسمة تبيّن أن القائد القوطي قد اتّجه إلى معسكر المسلمين ليعلن انضمامه إليهم، فتقع الهزيمة لجيوش لذريق ويتحقق النصر للمسلمين.. ويمسح جورجي بهذا

التسجيل المزوَّر للتاريخ كل جهود المسلمين وجهادهم وتضحياتهم، ليبرز دافعاً هزيلاً يوحي به للأجيال أنه سر نصرهم وسبب هزيمة عدوّهم! .

ومن مطالعة عناوين روايات جورجي زيدان ومعرفة أسمائها :

١ ـ فتاة القيروان

٢ ـ المملوك الشارد

٣ ـ الأسير المهتدي

٤ ـ أرمانوسة المصرية

٥ ـ جهاد المحبّين

٦ ـ شارل وعبد الرحمن

٧ ـ استبداد المماليك

٨ ـ الانقلاب العثماني

٩ ـ الحجّاج بن يوسف .

يدرك القارئ الواعي أنّ الرجل لم يترك عصراً من عصور الحكم الإسلامي إلا وخاض فيه، ليسهم في مزيد من تزوير تاريخنا ومسخ معطيات حضارتنا في شتّى الميادين ومختلف المجالات كما أشرنا، الأمر الذي يجعله بجدارة في طليعة المزوّرين المعاصرين لتاريخ أمتنا المفترى عليها في مختلف العصور .

ويمكن إيجاز الصورة التي يلقاها القارئ في مؤلّفات جورجي زيدان عن الإسلام عقيدة وحضارة ومنهاج حياة، والانطباع الذي يخرج به من تاريخ الإسلام والمسلمين في النقاط التالية المدروسة المخطّط لها :

١ ـ أبرز فيما قدّم من صفحات تاريخية صور الانحراف في مجالس الشراب وصحبة الغواني، قبل مجالس المعرفة وحلقات العلم ومحاريب العبادة.

٢ ـ سلّط الأضواء على التفنّن في أنماط الأزياء وثياب التبرُّج، ولم يشر بصورة إيجابية مشرِّفة لوجود جوانب الحشمة ومظاهر التديّن والوقار في عالم المرأة المسلمة مما لم يخلُ منه عصر من العصور.

٣ ـ أغفل جورجي زيدان في صفحات تاريخه الذي قدّمه للأجيال جوانب التكامل والشمول في الحضارة الإسلامية، وحاول من منطلقات كهنوتية ورغبة كامنة في النفس لم يستطع إخفاءها أن يقسّم المجتمع إلى قسمين: الدين، وحصره في المسجد والتكايا؛ والقصور والحدائق والأسواق، وجعلها منطلقاً لحياة متحرّرة من ضوابط الدين وقواعد الإيمان ومقاييس العقيدة الصافية.

كما يتبيّن لنا من تلك العناوين بعد تمحيص ما قد كتب جورجي زيدان، أن الموضوعات التي كتب فيها وعنها كانت مواضيع منتقاة تخدم أهداف هذا المزور الكبير:

١ ـ لقد كتب عن الحجّاج بن يوسف ليلقي الأضواء على ظلمه وجبروته وقسوته، ولم يكتب عن عمر بن عبد العزيز وعدله، أو الوليد بن عبد الملك وفتوحاته، أو الرشيد الذي كان يحجّ عاماً ويغزو عاماً، وغير ذلك من إيجابيات الخلفاء في شتّى العهود. كما بالغ في موضوع ظلم الحجّاج وقسوته.

٢ ـ وكتب عن أرمانوسة المصرية ليبيّن كيف فتح المسلمون مصر

التي كانت تنعم ـ كما يقول ـ في أفياء الحضارة القبطية قبل أن يأتي المسلمون إليها، ويحلّوا فيها دخلاء على من سبقوهم، وهو الأمر الذي يدغدغ عواطف بعض دعاة الانفصال والفتنة الطائفية في الصعيد.

٣ ـ وكتب عن شارل وعبد الرحمن، ليبرز الجانب النصراني في إسبانيا، ويسلّط الأضواء على حضارتهم، قبل الحديث عن مواقف عبد الرحمن وحضارة المسلمين وتاريخ العرب في الأندلس.

٤ ـ وكتب عن استبداد المماليك، وما كان يقع في عهد حكمهم من تسلّط، ولم يكتب عن موقفهم المشرّف في معركة عين جالوت، وكيف خلّصوا أمّتنا من ذلّ أبدي ومهانة لا تُمحى على يد التتار لو انتصروا.

٥ ـ وكتب عن الانقلاب العثماني، ولم يكتب عن مواقف السلطان عبد الحميد وصلابته في وجه اليهود ورفضه الاعتراف لهم بفلسطين وطناً قومياً لهم، ولو كلّفه ذلك عرشه ومُلكه وحياته.

ولعلّ أخطر ما قام به جورجي زيدان وذرّيته من بعده في مصر تأسيس مطبعة خاصة تحوّلت فيما بعد إلى أضخم وأوسع دار للطباعة في العالم العربي، مما يسهّل على القوم تزوير الكلمة ومسخ الحقيقة بآلاتهم الخاصة وأجهزتهم المملوكة لهم، لا يحول دون بلوغ أهدافهم خلاف في الرأي مع صاحب مطبعة أو ممولّ في مجال المال، بالإضافة إلى تزيين أهدافهم وزخرفة غاياتهم، ليسهم في مسيرتهم كثيرون من حَمَلة الأقلام وقادة الفكر وأصحاب الرأي، بعد أن أصابت المسلمين غفلة عميقة وغفوة طال عليها الأمد.

لقد كان جورجي زيدان يحاول في معظم ما كتب إطفاء ومضة النور من حضارة المسلمين، وإخماد خفقة الخير في حياة الأمة حتى تبدو

العصور الإسلامية كلها حقباً مظلمة من سفك الدماء أو إشباع النزوات والتمتُّع بالشهوات.

وحين نتصفّح تاريخ العرب للمرحوم مصطفى صادق الرافعي، وتاريخ العرب لجورجي زيدان أو فيليب حتّي؛ نلمح الفرق بين الثكلى والمستأجرة، بين الذي يعرض الصفحة المشرقة وهو بها فخور والصفحة المظلمة وهو لها آسف، وبين مَن يعرض ذلك كله بروح الذي يتجنّى على الحقيقة أو يتشفّى ممَّن يكره.

ومن الدقة في العرض أن نقول بأن جورجي زيدان يكتب بأسلوب خبيث مبطّن ليس فيه شراسة عنيفة وعداوة ظاهرة، بينما يكتب فيليب حتّي وهو يعرض سيرة الرسول الأعظم بأسلوب المفتري الحاقد الممتص من البيئة الكنسية الأمريكية كل مفتريات التاريخ وأحقاد الطائفية.

ومن الوضوح الذي لابد أن نعلنه هنا في ختام هذا البحث عن جورجي زيدان أن نقول:

لقد كان أسلوبه في العرض أرق، وخطره أدقّ. . فلنتأمّل!.

فيليب حتّي .. واحد من أبرز مزوّري التاريخ !

بعد الحديث عن جوانب شتّى من عملية التزوير لتاريخ أمتنا، وأسلوب الدسّ الرخيص الذي ملأ به المفترون صفحات تاريخنا الإسلامي بخاصة، لابد من معرفة ملامح بارزة ومعالم واضحة لشخصية كان لها دور مشبوه في مسخ الحق وزخرفة الباطل. ونعني بهذا الإشارة لمن سمّاه البعض (أبا التاريخ)، وذكروا له من المآثر الموهومة والفضل المزعوم على أمتنا ما نال به إعجاب الكثيرين من المضلّلين المخدوعين؛ ذلكم هو الدكتور فيليب حتّي. . فمن هو (حتّي) على حقيقته، وما الدور المشبوه والعملية الظالمة التي قام بها خدمةً لطائفية تكمن بين جوانحه، واستجابة لمحركيه من وراء ستار؟.

يقول رشدي المعلوف تحت عنوان (أبو التاريخ في ذمة التاريخ):

«الدكتور فيليب حتّي، الذي دخل التاريخ اليوم، بعد أن ساهم في جعله واحة حضارة لا مجرّد سجلّ سياسة وحرب، لم يكن عادياً بين المؤرخين. هو من أولئك الأئمة الذين كانوا في كتابتهم التاريخ يصنعون التاريخ، فجعلوا كلمة مؤرّخ لقب شرف وعنوان فضل لا مجرّد اسم مهنة!

وكذلك لم يكن عادياً بين المغتربين، وقد حمل كل لبنانه، وعالمه العربي كله، إلى كل الغرب في ما كتب، وفي ما علم وفي ما كان. . .

فضله على العلم والتعليم، وهو مثال المعلّم العالم، لا يوازيه إلا فضله على الروح العلمية، التي تجلّت شعاراً في مؤلّفاته ومحاضراته، كما

تجلّت (عدوى) في تلاميذه الذين ملؤوا بأجيالهم مشرق الأرض ومغربها. وما أكثر الذين هم مثلي في هذا المجال، لهم حظ الاعتزاز بأنهم من (أحفاده)، من تلاميذ تلاميذه، وقد علّمهم أكثر بكثير من حرف! علّمهم البحث عن الحقيقة.

(ولكن) ذلك حرّرهم ولم يصيّرهم عبيداً...

وأما خدماته الوطنية التي لا تحصى، فقد يكون أهمها، على أهميتها جميعاً، ليس ما قدّمه من فكره وجهده، وقد أغنى المكتبة والمعرفة وأجواء النهضة، ولا حتى ما قدّمه من روحه، وقد جعل الناس على اختلاف نزعاتهم يشعرون بقوة الجامع المشترك بينهم كأبناء تاريخ إنساني واحد، بل ما قدّمه من شخصيته كقيمة إنسانية حضارية فذّة، عزّزت في أعين الغرب مقام الشرق إلى حدّ انتزاع الاعتراف بالتفوّق، فأوجدت أسساً مدنية للتفاهم العميق قرّبت بين قطبي الأرض، وأدنت البشرية من حلمها الأزلي بالوحدة»[1].

فهل حقيقةً أن الدكتور فيليب حتّي الذي نكتب عنه وعن سوءاته بموضوعية في كتابنا؛ هو كما يقول المفتونون به، وكما يروّج له تلامذته ومحبّوه بين أبناء جيلنا المعاصر ـ إمعاناً في الافتراء واستمراراً في أكبر عملية للتضليل وأخطر حملة للتزوير في العصر الحديث ـ أم أن للرجل وجهاً آخر وحقيقة خافية لابدّ من الكشف عنها، وإبراز معالمها الكريهة الشوهاء؟.

هذا ما سنتحدث عنه في الصفحات القليلة التالية:

---

(١) مجلة المستقبل، العدد ٩٨ الصادر بتاريخ ٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٩م.

الدكتور فيليب حتّي. . جذوره وأصول ثقافته:

«قد تكون المصادفة[1] وحدها هي التي دفعت بالطفل فيليب الذي كان يتلقّى العلم لدى قسيس كنيسة شملان أن يمضي في طريق المعرفة، حتى بلغ المستوى الذي بلغه وتبوّأ المكانة التي تبوّأها، ذلك أنه سقط ذات يوم وهو في طريقه إلى المدرسة عن ظهر الحمار الذي يحمله فكُسرت يده، فقررت أسرته أن ترسله إلى مدرسة أرقى مستوى من مدرسة الكنيسة بشملان، ليتلقى فيها مزيداً من التعليم، لأنه صار ذا عاهة في يده أو (عطيلة) كما يقولون، وبات لا يصلح للعمل اليدوي كما كان الحال مع أخيه النجار.

وحدث أن تحوّل الطفل فيليب من مدرسة كنيسة شملان ـ التي تلقّى فيها تعلُّم العربية والسريانية ـ وكان الكتاب الوحيد الذي اغترف منه العلم والمعرفة هو التوراة ـ إلى مدرسة الأمريكيين في سوق الغرب في لبنان، وكان يديرها رجل أمريكي ينادونه (مستر هاردي)، وهو الذي كان يشرف على المدرسة، ويتولّى تدبير شؤونها، ويرعى النابهين من أبنائها. وذات يوم استدعى إلى مكتبه الطالب فيليب، وقال له:

«أنت شاطر يا فيليب وأمامك مستقبل زاهر، ويجب أن تدرس في الكلّية السورية الإنجيلية ببيروت»، وهي المعروفة اليوم بالجامعة

---

(١) معظم ما ورد في ترجمة حياة الدكتور فيليب حتّي هنا؛ ورد في مقالة وترجمة حياة كتبها السيد حافظ إبراهيم خير الله في ملحق أصدرته جريدة النهار اللبنانية، وتكاد الألفاظ الواردة في ترجمتنا هنا تكون الألفاظ نفسها التي وردت في المقال المشار إليه مع تصرّف طفيف.

الأمريكية (القناع العلمي البرّاق للكلية اليسوعية)[1].

غير أن فيليب لم يكن يصدّق أنه يستطيع العيش في بيروت والالتحاق بالكلية التي منّاه بها المستر هاردي. إلى أن حان الوقت للبدء بتنفيذ خطة مستر هاردي بعد أن سكن فيليب قبل ذهابه إلى بيروت مع عائلة درزية في (دير فوبل)، وكان يدرس في مدرسة القرية هناك، ويشرف على شؤون المدرسة الصغيرة.

وكان أن جمع أهل الفتى (فيليب حتّي) أربع ليرات ذهبية أضاف لها المعلّم الأمريكي مستر هاردي ليرة لتصبح خمساً، حملها فيليب معه إلى بيروت ليتمّ تعليمه فيها.

وقد أبدى الفتى نجابةً وذكاءً في المدرسة السورية الإنجيلية، فقدّمت له المدرسة منحة حتى تخرّج من صف (الصوفومور)، ثم نال بكالوريس في الآداب من الجامعة في بيروت عام ١٩٠٨، والتحق معلّماً بالجامعة الأمريكية حتى عام ١٩١٢. وفي عام ١٩١٠ عقد في كلية (روبرت كولدج Robert Colledge) باستنبول مؤتمر لاتحاد الشبيبة المسيحية العالمية، فاختير فيليب ممثّلاً عن الجامعة الأمريكية.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ من التخطيط والتوجيه والتنفيذ، إذ طلب (مستر بلس Bless) ـ كان يومئذٍ رئيساً للجامعة ـ المعلّم فيليب حتي ليقول له:

«يا فيليب، لقد أُعجب بك المستر جان نوت J.Note الأمين العام لاتحاد الشبيبة المسيحية العالمية، وكان معجباً بما كنت تقوله في مؤتمر

---

(١) هذا التعليق منّا لا من كاتب المقالة.

استنبول، وقد اتّصل بنا ورجانا أن نرسلك لتمثّل الجامعة الأمريكية في مؤتمر يعقده الاتحاد في نيويورك».

وأضاف مستر بلس قوله: «وأنا يا فيليب أشجّعك على ذلك، لأنّهم سيدفعون لك كل نفقات الرحلة وتكاليف الإقامة في أمريكا، كما أني سأعطيك معاش سنة كاملة من الجامعة الأمريكية ببيروت إذا أمضيت سنة واحدة للتحصيل العلمي في الولايات المتحدة، وكأنك لاتزال معلّماً لدينا هنا في الجامعة، ونحن بالطبع نرغب في عودتك إلينا للتدريس معنا هنا».

وتمّ ما قد خطّط له، واقترح على فيليب حتّي بأن يمثّل الجامعة الأمريكية في مؤتمر اتحاد الشبيبة المسيحية العالمية بنيويورك، وما إن انتهى زمن انعقاد المؤتمر، حتى بدأت الآمال تكبر في نفس المعلّم الشاب، فقال وهو يحاور نفسه:

«إذا درست سنة كاملة هنا في الولايات المتحدة فإني أستطيع الحصول على ماجستير في الدراسات الشرقية!.. ثم انطلق من نيويورك إلى جامعة كولومبيا مستفسراً عن المجالات المفتوحة له، فوجد أنّ كل ما يتعلق بالدراسات الشرقية هو في الواقع دراسة للتوراة وما حولها من شؤون الدين اليهودي واللغة العبرية، أما غير ذلك من دراسات عربية فتأتي بصورة هامشية لا أساس لها في المنهاج الدراسي المقرر».

«أما عن التاريخ والتخصّص في مجاله، فلم يكن قد ورد في ذهنه أصلاً، لأن تدريس التاريخ في مدارس الجبل أو بيروت في العهد العثماني لم يكن مرغوباً فيه من جهة عامة، لأن غير المسلمين لم يكونوا ليرغبوا في دراسة تاريخ أمتنا من منظور إسلامي، بالإضافة إلى حساسية عرفت لدى بعض الحكّام الأتراك كانت تصرف العرب عن دراسة تاريخهم والاطلاع

على بعض عوامل النهضة لدى الأمم المعاصرة في التاريخ الحديث».

«وقد وُضع فيليب حتّي أمام أمر واقع ومواجهة لابدَّ من التغلّب عليها، حيث قيل له: إذا كنت ترغب في الحصول على ماجستير في الدراسات والشؤون الشرقية فعليك أن تدرس السريانية والعبرية، ولم يرد للعربية ذكر قطّ. وكان فيليب يعرف اليسير من السريانية أيام السنديانه في كنيسة شملان أما العبرانية فلم يكن يعرف منها شيئاً».

«وفي عام ١٩١٣ قرّر الشاب فيليب حتّي أن يلتحق بجامعة كولومبيا للحصول على (الدكتوراه) ثم عيّن بعد ذلك مدرّساً في جامعة كولومبيا التي استمرّ يعمل فيها لمدة خمسة أعوام (١٩١٥م - ١٩٢٠) عاد بعدها ليعمل مدرّساً في الجامعة الأمريكية ببيروت.

ولما رأت جامعة برنستون في ولاية نيوجرسي أن تؤسس قسماً لدراسات الشرق الأدنى قامت باستدعاء الدكتور فيليب حتّي الذي أُعدّ منذ طفولته لمثل هذا اليوم وادّخر لمثل هذه المهمّة، فأُسندت له رئاسة القسم منذ تأسيسه عام ١٩٢٦.

ويعتبر هذا القسم الأول من نوعه في هذا الحقل من الدراسة في الولايات المتحدة، ويشتمل على دراسات تاريخية وأدبية واقتصادية ودينية ولغوية للعالم العربي والإسلامي، ومنها العربية والفارسية والتركية بالإضافة لدراسة الديانة اليهودية واللغة العبرية.

وحين قرّرت حكومة واشنطن أن تعلّم عدداً من رجالها اللغات الشرقية المختلفة لتكلّفهم بمهام سياسية واستخبارية خاصة؛ لجأت إلى جامعة برنستون باعتبارها الجهة الوحيدة التي تهتم بالشرق يومئذ في

الولايات المتحدة، واتفقت مع جامعة برنستون على أن تتولّى الحكومة الأمريكية الإنفاق على الدائرة الشرقية في الجامعة بما يحقّق الغرض، فاستقبلت الجامعة من مبعوثي الحكومة مئة وخمسين رجلاً لتعلّم العربية وخمسين لتعلّم التركية، ومثلهم لتعلّم الفارسية.

وقد أسندت مهمة الإشراف على تعليم هؤلاء للدكتور فيليب حتّي الذي قام بالدور وأدّى ما أُسند إليه وفق ما هو مرسوم له.

وفي عام ١٩٤١م أُنشئ في جامعة برنستون قسم الآداب السامية، وقد تولّى الدكتور حتّي رئاسته من عام ١٩٤٤م، وحتى عام ١٩٥٤م، حيث تقاعد بعد عمل متّصل في جامعة برنستون دام ثمانية وعشرين عاماً.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن الحكومة الأمريكية قامت بتكليف الدكتور حتّي بوضع كتاب عن تاريخ العرب وحضارتهم كي يوزَّع على (القوات المسلحة الأمريكية)، فقام بالمهمة ووضع الكتاب بأسلوب وطريقة أملتها روح طائفية تتّفق مع ما كانت الولايات المتحدة تهدف إليه من تشويه حضارتنا والإساءة إلى عقيدتنا، وهو أمر سنعرض له عند الحديث عن أبرز أعمال الدكتور حتّي في كتابه (تاريخ العرب) الذي أُعيدت طباعته إحدى عشرة مرة.

ومن المؤسف أن التأثُّر بالروح الغربية لدى كثير من الجامعات في العالم العربي والدعوة إلى هجر الإسلام دعت بعض الحكّام إلى تقليد الدكتور فيليب حتّي عدداً من الأوسمة الرفيعة في أكثر من قطر عربي تقديراً ـ كما قيل ـ لأعماله وأبحاثه في خدمة التاريخ العربي والحضارة العربية والإسلامية!.

وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الثاني عشر من عام ١٩٧٨م توفي الدكتور فيليب حتّي عن عمر يناهز الثانية والتسعين من السنين، وكان ذلك في مدينة برنستون بالولايات المتحدة، حيث ووري الثرى.

وقد أقامت جامعة برنستون حفل تأبين للراحل في اليوم التالي لوفاته دعت إليه العديد من رجال العلم والصحافة وأعضاء الجالية العربية بالولايات المتّحدة الأمريكية.

ومما قاله عنه بعض مؤبنيه في حماسة وانفعال ودون دراسة موضوعية لما قدّمه الرجل من شبهات وما أحاط به تاريخنا من تزوير:

«كان أستاذاً ومؤرخاً وافر العطاء غزير الإنتاج، فقد ألّف في تاريخ العرب وحضارتهم وأديانهم، حتى أن المتخصّصين في الجامعات الأمريكية يعتبرونه الشخص الأول والوحيد في الولايات المتحدة الذي استطاع في مهارة وموضوعية أن يقدّم العرب وحضارتهم للعالم الغربي في ثوب قشيب، مبيّناً لهم أصالة العرب والمسلمين وحضارتهم وفضلهم على الحضارة الغربية والإنسانية جمعاء»[١].

بقي أن نعرف أن الدكتور فيليب حتّي لم يغادر هذه الدنيا إلا بعد أن ترك تلامذة يحملون رسالته ومفكّرين يرفعون رايته، التي سنعرض لها في ثنايا بحثنا هذا، ومن أبرز من نالوا على يديه الدكتوراه قسطنطين زريق عام ١٩٣١، ثم أمين نبيه فارس، ثم جبرائيل جبور، وكثيرون ممن يرون في الإسلام مجرّد تراث مضى عهده وانقضى ليقوم مقامه قومية حاول بعض

---

(١) جريدة الرأي الأردنية، العدد الصادر في ٢٢/ ١/ ١٩٧٩، من مقال للدكتور درويش غوانمة، جامعة برنستون.

دعاتها إلغاء سر نصرنا وأسباب عزّتنا. وصدق أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث يقول: «نحن قومٌ أعزّنا الله بالإسلام، فمن ابتغى العزّة بغير الإسلام أذلّه الله».

أنماط من شبهات فيليب حتّي ونماذج من مفترياته:

المطّلع على مؤلّفات الدكتور فيليب حتي وعطائه في المجال التاريخي يلاحظ أنها كثيرة متعدّدة، أبرزها: (تاريخ سورية) و(لبنان في التاريخ) و(صانعو التاريخ العربي) و(مدن عربية وإسلامية) و(الإسلام طريقة للحياة) و(تاريخ الدروز وعقيدتهم الوثنية)، الأمر الذي يؤكد لنا الأسلوب الذي اتّبعه المؤرّخ الغربي الأمريكي الشهير، حيث يبرز الدور الذي قام به العرب إسهاماً في حضارة العالم مع التركيز على أن نبيهم اخترع لهم ديناً مزيجاً من الوثنية اليونانية والجاهلية، وخليطاً من أساطير الفرس ومنقولات التوراة والإنجيل، وادّعى أنه من عند الله، وهي صورة يرضاها العلمانيون في الوطن العربي، ويتبنّاها تلامذة الدكتور (حتّي) من بعده، ويبشّر بها كثير من مفكّري النصارى في العصر الحديث؛ وإلا ما معنى أن تُولَد القومية العربية المعاصرة في أحضان الجامعة الأمريكية ببيروت، وأن يتبنّى القومية العربية وحدها دون الإسلام أو القومية الإقليمية: زعماء أحزاب وتنظيمات سياسية تحكم وتتصدى للزحف الإسلامي والمدّ الإيماني؛ وعلى رأس كل تنظيمٍ: طائفيٌّ يدين بالولاء للكنيسة، ويخضع فيما يقول ويفعل لما يخطّطه له القساوسة والرهبان؟!.

يقول فيليب حتي مؤكّداً هذا المعنى العلماني الطائفي معاً:

«على أن الإسلام الذي فتح أراضي الشمال لم يكن الدين بل الدولة،

والعرب الذين فاجؤوا العالم وانقضُّوا عليه، إنما كانوا مدفوعين بعامل قومي، فالفوز الأول كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي»[1].

ويقتضي واجب الأمانة العلمية والموضوعية في الدراسة والبحث أن نقدّم نماذج من الشبهات وملامح من المفتريات والأضاليل التي قدّمها الدكتور فيليب حتّي، لئلا يبدو رأينا فيه مجرّد تجريح ونيل منه دون مبرر.

إن من أبرز أعمال الدكتور حتّي كتابه (تاريخ العرب) الذي ظهر لأول مرة عام ١٩٣٧م، ثم طُبع إحدى عشرة مرة، ونقل إلى عدد من اللغات في العالم، منها الألمانية والفرنسية والإسبانية والبولندية والإيطالية والكرواتية والتركية والأُردية والبنغالية والأندونيسية والعربية، بالإضافة إلى عدد آخر من اللغات الأوروبية والآسيوية.

وقد تناول هذا الكتاب ـ في طبعته المطوّلة ـ التاريخ الإسلامي بالتفصيل، وفق غايات مرسومة وروح غير موضوعية وغير متجرّدة، ينقصها الترفُّع عن الدسّ والافتراء وبثّ الشُّبهات ونشر الأضاليل والأباطيل.

التشكيك في القرآن الكريم:

يقول الدكتور فيليب حتّي في ترتيب سور القرآن الذي جاء توقيفياً كما أمر به الوحيُ الرسولَ الكريمَ:

«ومن يتحرَّ القرآن يجد أن لسُوَره ترتيباً سطحياً مبنياً على نظام الطول والقصر، فالسور المكية وهي نحو تسعين؛ راجعة لعهد الجهاد في

---

(١) تاريخ العرب، ص ٢٠٢.

حياة النبي، وتمتاز بأنها قصيرة حادّة حماسية ذات أسلوب ناري مليئة بالمعاني النبوية»[1].

ويقول المؤرخ العربي الأمريكي:

«أما قصة يوسف فقد جاءت في قالب واقعي جذّاب، والاختلافات اليسيرة في هذه وأمثالها من القصص الأخرى كقصة استجابة إبراهيم لدعوة الله الحق (الأنبياء ٥٢ ومايلي) من المعروف في التوراة أن لها نظائرها التي تقابلها في المشنة والتلمود وسواها من كتب اليهود غير القانونية»[2].

ويتمادى الدكتور حتّي في تشكيكه وتضليله معاً فيقول:

«ولا يذكر القرآن من أشخاص الإنجيل ذكراً واضحاً إلا زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ويسوع (عيسى) ومريم، والاسمان الأخيران يغلب ورودهما معاً، ومريم أم عيسى هي بنت عمران وأخت هارون في آن واحد. أما هامان الذي تعرفه التوراة كأحد المقرّبين إلى عرش احشويرش، فهو في القرآن وزير فرعون ملك مصر، والجدير بالذكر من أسماء شخصيات التوراة الواردة في القرآن جاءت على ما يظهر عن طريق اللغة السريانية (مثل إلياس ونوح) لا مباشرة عن طريق اللغة العربية»[3].

ويُغرِق الدكتور العالِم والمؤرّخ الفذّ ـ الذي خدع الكثيرين ـ في الدسّ والافتراء، فيقول وهو يورد ما سمّاه بدراسة القصص القرآني على صورة عبارات وردت على حدّ زعمه في القرآن والإنجيل معاً، يقول:

---

(١) تاريخ العرب، ص ١٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٩.
(٣) المصدر السابق، ص ١٨٠.

«فالظاهر أنها من الأمثال الساميّة القديمة وجوامع الكلم المألوفة في العبرانية والعربية معاً، وأكثر الأمثلة على التوازي بين الكتابين هي بين إنجيل متّى والسُّوَر المكية، أما العجائب التي ينسبها القرآن إلى عيسى كالقول أنه يكلّم الناس في المهد [آل عمران ٤٤]، وأنه ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فهي تذكّرنا ببعض الخوارق التي نسبت إلى عيسى في الأناجيل الأبوغرافية (أي غير الموثوق بها) وخصوصاً في إنجيل الطفولية، ولسنا نرى في القرآن شيئاً يتوازى مع ما ورد في أسفار الفرس المقدسة إلا صورة السماء والجحيم، وهي مرسومة بريشة قد غطست في أصباغ ملونة تغلب فيها المادة على الروح [الواقعة: ٨ ـ ٥٦]، وإن لفي كتب الفرس ما يقابل ذلك، ويقال إنّ صورة النعيم التي أخرجها القرآن أوحتها الرسوم الدقيقة أو بدائع الفسيفساء التي خلّفها النصارى مما يمثّل به جنان الفردوس، وفيها الملائكة رُسمت على أشكال الولدان والحور»[1].

وينسب المؤرخ الطائفي القول الكريم ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ لنظرية يونانية قديمة إمعاناً في التشكيك في الكتاب العزيز، فيقول:

«لذلك فالقرآن لا يمسه إلا المطهرون، هذه نظرية اللوغس اليونانية، وليس نادراً في هذا الزمان أن نرى مسلماً يلتقط ورقة عن الأرض، فيضعها بخشوع في مكان أمين من جدار لئلا يكون اسم الله عليها»[2].

ونكتفي بهذا النمط من المفتريات التي ساقها الدكتور فيليب حتي مشكّكاً في القرآن الكريم، لنورد مقولة له لخّص فيها رأيه في الإسلام على لسان آخرين، حيث يقول:

---

(١) تاريخ العرب، ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٢.

«على أن بعض النصارى من أهل أوروبا وأهل الشرق تكوَّن عندهم في العصور الوسطى رأي يستند إلى ما بين الإسلام واليهودية والنصرانية من التشابه، مؤدّاه أن الإسلام بدعة نصرانية أكثر منه ديناً جديداً».

وهنا لابد من وقفة سريعة تردّ تلك الشبهات الساذجة والمفتريات السطحية التي نزّه الله دينه وكتابه عنها، والتي تتهافت عند إلقاء نظرة عمق متأنّية لدى أبسط الباحثين غير المغرضين وغير الحاقدين:

١ ـ التشابه الوارد بين القرآن والإنجيل في بعض القصص والحِكَم والأمثال والعِبَر مردّه إلى أن الله سبحانه هو منزّل التوراة والإنجيل ـ قبل أن يجري عليهما التحريف والتبديل ـ وهو منزّل القرآن كذلك، وأن الله جلّ شأنه مصدر تلك القصص والحكم والعبر التي ساقها على أيدي أنبيائه عليهم الصلاة والسلام لخلقه على الأرض، ولم يزعم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ـ وحاشا له أن يفعل ذلك ـ أن ما جاء به هو رسالة ابتدعها ودين صنعه، ولكنه أكّد كما ورد في القرآن الكريم أنه جاء بدين من عند الله مثلما سبقه إخوانه الأنبياء من قبل بأديان حملوها من الله تعالى لأقوامهم:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد أشار الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه لذلك في حديث له، حيث يقول: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان

ويعجبون منه ويقولون: لو تمّ وضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»[1].

٢ ـ يحسب المؤرخ المرموق أنه وقع على أمر خطير وتناقض واضح في القرآن الكريم الذي نسب موسى وهارون لأبيهما (عمران)، ونسب مريم لأبيها (عمران) على ما بين عهدي موسى ومريم من زمن طويل، وقد نسي المؤرخ الباحث أن الأسرة الملكية الإنجليزية الواحدة فيها أكثر من (جورج) و(إليزابيث) وأن الأسرة الملكية الفرنسية الواحدة كان فيها أكثر من (هنري) و(لويس) الأمر الذي أنكر المؤرخ مثله أن يكون في بني إسرائيل على مرّ العصور أكثر من (عمران)...

أليست هذه سذاجة في التفكير، وسطحية في البحث أن تتسقط أمور يظن فيها من التناقض المزعوم والهفوات الموهومة ما يؤخذ على القرآن الكريم بكلّ إعجازه وإحكام تنزيله.

٣ ـ ومما يؤكد توفر سوء النية لدى المؤرخ (فيليب حتي) أنه لم يجد ما يستشهد به من أقوال الكتّاب والمفكّرين الأوروبيين في حق رسول الله ﷺ إلا كلمة ضالة متجنّية قالها دانتي في فورة حقد عارم: «وقد وضع دانتي في روايته الإلهية محمداً في الجحيم الأسفل مع أولئك الذين زرعوا بذور الشرّ والانشقاق»[2].

أرأيتم فرية أبشع من هذه ومكافأة أسوأ تلصق برجل أمثل، عدَّه المنصفون من كتّاب الغرب على رأس مئة رجل هم أعظم رجال الدنيا على مرّ العصور[3].

---

(١) حديث صحيح، رواه مسلم وأحمد والترمذي والحاكم في المستدرك.

(٢) تاريخ العرب، حتّي، الفصل العاشر، ص ١٨٣.

(٣) راجع كتاب (المئة الأوائل)، لمايكل هارت، ترجمة الأستاذ خالد أسعد يحيى =

٤ ـ خلط المؤلف الطائفي المغرض بين الإسلام ـ بمفهومه الشامل باعتباره عقيدة أمة ومنهاج حياة، حيث أراد الله به سبحانه أن يكون عبادة وقيادة، ديناً ودولة، سيفاً ومصحفاً ـ وبين النصرانية التي جاء بها السيد المسيح عليه السلام (للخراف الضالة من بني إسرائيل) لا للناس كافة، وللتخفيف من غلواء المادية اليهودية، لا لمعالجة جميع شؤون الحياة، وهذا واقع لا ينكره الدارسون للمسيحية في أصولها حتى قبل أن تُشتت إلى طوائف عديدة وأناجيل شتّى وفرق بعضها لا يقرُّ بكثير مما تقوله الفرق الأخرى أو تعتقده.

الانتقاص من شخص الرسول الأعظم والطعن في نبوّته:

لم يعرف التاريخ شخصية دينية أو قيادية أو عسكرية أو إصلاحية اجتماعية تتبَّع الناس أخبارها، وبحثوا في دقائق تفصيلاتها وتحرّكاتها وأسرار حياتها الخاصة والعامة، ووثوقها بكل ما وصلوا إليه من وسائل التوثيق المنقول والمعقول والجرح والتعديل لما يحيط بها من رجال، أو ما يتعلّق بما له بها صلات، مثلما تمّ لشخصية الرسول الأعظم محمد ﷺ، ومع ذلك يطلع علينا المؤرخ العربي الأمريكي فيليب حتي ليواجهنا بفرية ساذجة يقول فيها:

«ومع أنه ليس بين أنبياء العالم من ولد في ضوء التاريخ سوى محمد، فإن نشأته محاطة بالغموض، فليس لدينا عن سعيه في طلب الزرق ومحاولاته لبلوغ آماله وإدراك الغرض الذي يرمي إليه وما قاساه من المشقّة والألم في سبيل تحقيقه؛ سوى قليل من الأخبار الموثوقة»[1].

= والمحامي أحمد غسان سبانو، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(١) تاريخ العرب، ص ١٦٤.

ومثل هذه العبارة إسفين يحاول المؤرخ المشبوه أن يضرب به في صرح السيرة النبوية المطهّرة الموثوقة، لكنه إسفين يتحطّم وتتناثر شظاياه، لترتد إلى صدر ضاربه، لأن أحاديث الرسول ﷺ التي تناقلها الرواة وصحّحها العلماء ومحّصوها، ودرسوا وصنّفوا رجالها ورواتها؛ تحمل لنا بين طيّاتها وفي متونها كثيراً من دقائق التفصيلات في كثير من شؤون حياته بخاصة، وحياة الأمة في عهده بعامة، بما في ذلك طموحات الرسول العظيم وآماله الكبيرة، باعتباره نبي أمة وقائد مسيرة ورائد بناء وعطاء لخير أمة أُخرجت للناس، لا باعتباره طامعاً في دنيا أو راغباً في منصب أو جاه، وهو الذي مات ولم يورث آل بيته قصراً ولا ديباجاً ولا ضياعاً، ولا مالاً سوى سبعة دنانير، آمر عائشة رضي الله عنها أن توزّعها على الفقراء قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى.

ولا يعرض فيليب حتي من حادث الإسراء والمعراج الهام سوى وصف الدابّة التي حملت الرسول العظيم إلى السماوات العلى، فيقول:

«ثم حملته دابة عجيبة لها وجه المرأة وأجنحة النسر وذنب الطاوُس إلى السماء السابعة»[1].

ثم يغمض المؤرخ قلبه وعينيه عن جوهر الإسلام وأحكامه التي جاءت لإنقاذ الناس كافة والبشرية عامة من عذاباتها، ويتمادى في الدسّ وبثّ الضلالة في ثنايا كتابه، ليقول عن العهد المدني:

«وفي هذا العهد المدني تم تنظيم الإسلام وحدة عربية قومية»[2]، منكراً شمول الإسلام وكماله وتمامه ودعوته للناس كافة، وليس لخراف

---

(١) تاريخ العرب، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٩.

العرب الضالة، كما جاء المسيح عليه السلام: «للخراف الضالة من بني إسرائيل».

التشكيك في الشعائر الإسلامية والعبادات:

ويسوق الدكتور فيليب حتي غثاءً جديداً، فوق الذي ساقه في التشكيك بالقرآن الكريم وشخصية الرسول الأعظم ونبوّته، ليشكّك في الشعائر الإسلامية والعبادات، لكي لا يبقي للعرب من دين وخير وحضارة وتاريخ غير ما صنعه أبناء فينيقيا وآشور وبابل، وما تركه البطل القومي الجاهلي عمرو بن هشام، ومَن نسجوا على منواله واتّبعوا طريقه فيما بعد من عداوة للإسلام وحقد على المسلمين.

الصلاة:

يقول فيليب حتي عن الصلاة: «ولقد نجح الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، إلا أنه تأثّر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى»[1].

الزكاة:

ويقول عن الزكاة: «والحق أن المبدأ الأول الذي تنبعث فكرة الزكاة عنه يوافق مبدأ (العشر) الذي قال ببلينوس أن التجّار من عرب الجنوب كانوا يؤدونه لآلهتهم قبل أن يُسمح لهم ببيع طيوبهم»[2].

الحج:

أما الحج فيقول عنه المؤرخ المزوّر الذي وسَمَهُ المضبوعون

---

(١) تاريخ العرب، ص ١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٨.

بالموضوعية: «ولعلّه في الأصل ظاهرة من عبادة الشمس، كان القوم يحيون عيداً لها، فصادف أن وضع هذا العيد في الاعتدال الخريفي ـ وهو رمز انشراح صدر الإنسان، فكان العيد بمثابة توديع لقيظ الشمس وسيطرتها الغاشمة واستقبال لقزح إله الرعد والخصب.

ولقد استنّ محمد في السنة السابعة للهجرة عادة الحج القديمة، فأضافها إلى الإسلام، بما فيها من مراسم العبادة المتركّزة في مكة وعرفة، فتم للإسلام بتلك الفروض أعظم تراث له من جاهلية»[1].

ويسوق المؤرّخ المزوّر على لسان (إبراهيم رفعت) أدعية يردّدها البدو البسطاء عند طوافهم بالبيت، ليبدو الحج أشبه بمهرجان ساخر وطقوس كرنفالية سطحية:

«وقد ذكر (إبراهيم رفعت) بعض ما يصدر عن العربان من الكلام الساذج الغريب وقت طوافهم بالبيت الحرام، كأن يقول الرجل منهم: يا رب البيت، اشهد أني جيت، لا تقول ما جيت، اغفر لي ولوالدي ولا تغفر لي غصباً تراني جيت»[2].

ولابدَّ لنا أن نشير هنا إلى أمر ذي بال، وهو أنه بالرغم من تنامي الشعور القومي خلال الحرب العالمية الثانية، وفي أعقابها؛ لم يغب عن أذهان بعض الطيبين من رموز القومية يوم ذاك ممن لا يعادون الإسلام، بل يعتزون به، ولا يتخذون القومية ديناً لهم أو العلمانية منهج حياة، بل يعتبرون العروبة ظهيراً للإسلام وسنداً؛ أن ينقدوا مفتريات الدكتور فيليب حتي ويفنّدوا مزاعمه، وفي طليعة هؤلاء الأستاذ الأديب أكرم زعيتر رحمه الله، الذي كتب مقالاً في مجلة اليقظة العربية، وكانت تصدر في دمشق، وبيّن فيه ما للدكتور حتّي من مواقف إيجابية تجاه القضية الفلسطينية، كما

---

(١) تاريخ العرب، ص ١٩١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

يقول الأستاذ زعيتر، إلا أن ذلك لم يمنعه من فضح غاية المؤرخ المزوّر وكشف نواياه تجاه التاريخ العربي الإسلامي عبر العصور.

وقد أورد الأستاذ زعيتر في مقالته تلك أكثر من موقف ومغالطة للدكتور (حتّي) يحاول أن ينال فيها من الإسلام، وردّ عليه الردود المفحمة بحجة دامغة وبرهان ساطع.

والذي يهمنا هنا أن نورد فقرات من ذلك المقال، حيث يقول: «وإني لأرجو أن لا يفهم القارئ أنني أقول بكتابة تاريخ العرب خلواً من ذكر المساوئ والأخطاء، فالتاريخ يجب أن يستند إلى الحقيقة، وفي تاريخ كل أمة مساوئ وأخطاء، ولكني أنكر أن تختلق المساوئ والأخطاء اختلاقاً، وأن لا يكون البحث نزيهاً مجرّداً موضوعياً في نظر البعض ما لم يكن محشوّاً بالافتراءات، كما أنكر أن تستولي على الباحث التاريخي ذهنية تجنح دائماً إلى الهدم والتشكيك. وأرى أن المؤرخ الحق هو الذي لا ينطق عن الهوى، ولا تطغى على مشاعره حين يؤرخ نزغات وميول ونزعات طائفية كانت أو مذهبية أو غيرها.

وأقيد هنا أن في كتاب الدكتور (حتي) مآخذ كثيرة غير ما أنا ذاكر، لا يتسع نطاق هذا العدد من المجلة لذكرها كلها دفعة واحدة، ولعلي عائد إليها في مقال آخر».

ويختتم الأستاذ زعيتر مقالته تلك بقوله: «نكتفي اليوم بما أوردناه ولنا عودة إلى الكتاب الذي حوى الكثير مما يجب أن يفند وأن يلفت النظر إليه، ولعل ذلك يتطلّب مقالات عدة لا مقالة أو مقالتين»[1].

وبعد، فهذا هو فيليب حتي السرياني اللغة، التوراتي الثقافة

---

(١) مجلة اليقظة العربية ـ دمشق، السفر الثاني، سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

والاعتقاد، الكنسي الطفولة والنشأة، الأمريكي الرعاية والجنسية والتوجيه والتبنّي[1]، قدَّمناه على حقيقته ليعرف كتّاب تاريخنا المعاصرون عمّن يأخذون، وعلى أي المصادر يعتمدون وهم يفكرون في إعادة كتابة تاريخنا من جديد بعيداً عن دسّ المغرضين وافتراء الحاقدين!.

وتُفرِز الطائفية من سراديبها المعتمة وكهوفها المظلمة بين الحين والآخر عملاً أدبياً أو بحثاً تاريخياً أو دراسة فكرية، تصدر في هذه العاصمة العربية أو تلك، وعلى نطاق الساحات المحلية أو العالمية مما يصب كله في النهاية في نهر الكذب ومحيط الضلال الذي ما إن تشرق عليه شمس الحقيقة حتى تبدد ظلمته وتدحر بين يديها المفتريات والأوهام.

ومن أسوأ ما أفرزته الأقلام الطائفية من كتب معاصرة تناولت مرحلة من تاريخنا المشرق الوضيء كتاب صدر عام ١٩٦٦م بعنوان (علي أسد الله وقديسه)[2]، وقد ضم بين دفتيه مفتريات ومغالطات تزيد من فرقة الصف وتسهم في توسيع شقة الخلاف بصورة واضحة، لم يستطع معها الكاتب أن يضفي عليها مسوح البحث العلمي وأثواب الموضوعية كما يحاول عادة بعض المغرضين.

ولتأليف الكتاب قصة بدأت عندما أعلن في كربلاء عن مسابقة لتأليف كتاب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يتناول حياته وصفاته ويتحدث عن أبرز معالم شخصيته، فاتخذ المؤلف عنواناً طائفياً له لم يعرف عن صحابي ولا تابعي في الصفحات المشرّفة للأعلام من بناة حضارتنا السامقة، إذ أن كلمة (قديس) مصطلح معروف في أوساط

---

(١) أمضى فيليب حتي خمسين عاماً من عمره على الأرض الأمريكية، يحمل جنسيتها ويتكلّم لغتها ويعيش حياتها بكلّ ما فيها.

(٢) مؤلّف الكتاب الأستاذ روكس بن زائد العزيزي من مدينة مأدبا بالأردن.

الكنيسة، ولقب يمنح لأعلام اللاهوت ممن يقدّمون للكنيسة والطائفة خدمات دينية كبيرة، وهو تعبير لم تعرفه لغتنا في أدائها التعبيري التراثي عن حضارتنا ومعطياتها على مرّ العصور.

وقد حشد الكاتب في كتابه ذاك جملة من الشبهات والتُّهم التي أوردها في حق عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، واتّهم بعضهم بأنه باع دينه بدنياه، وأنه قد كذب على رسول الله إرضاءً للحكام، وقد اعتمد الكاتب على مصادر ليس من بينها كتب أهل السنة والجماعة على قربها منه وتوفّرها لديه أكثر من غيرها[1].

كما اتّهم الكاتب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما باغتصاب الخلافة من علي، واتّهم عدداً آخر من الصحابة، وطعن في دينهم وأمانتهم[2].

ومن عمق جهالة الكاتب بالموضوع الذي طرقه؛ أنه خلط بين أقوال الرسول الكريم ﷺ وبين أقوال علي، فكان ينسب بعض الأحاديث النبوية الشريفة لعلي، مما يؤكد بُعد الكاتب عما بحثه، وجهالته فيما تعرَّض له، إن لم يكن الأمر بدافع الغرض الذي لا حيلة لنا فيه؛ والمرض الذي لا برء منه ولا شفاء.

لقد خاض الكتاب في بيعة السقيفة لأبي بكر، وفي الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية خَوْض من يبحث عن المثالب، المُبْرز للزلّات؛ مما هبط بقلمه إلى مستوى لا يليق بمن يحترم نفسه من حملة الأقلام حتى أنه حاول أن ينال من رسول الله ﷺ واتّهمه بالجبن والشح، وهو يصوّر موقف علي رضي الله عنه عندما نام في فراش رسول الله ليلة الهجرة وهو يفتديه

---

(١) علي أسد الله وقديسه، ص ٧٢، ٧٣، ٨٣.

(٢) من تقرير رفعه الشيخ نوح سليمان ـ مفتي القوات المسلّحة الأردنية ـ إلى القيادة العامة مع تنسيب بمنع تداول الكتاب وإتلاف ما قد طُبع منه.

بروحه، إذ يشير وهو يلمز «أن علياً آثر محمداً بالحياة»، ثم يُتبع ذلك بيتاً من الشعر يستشهد به في صورة لا تليق بمقام رجل فاضل من عامة الناس، فكيف بسيّد الخلق وخاتم النبيين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم!

يقول الكاتب المستشهد بالشعر بعد سوق رواية مبيت علي في فراش الرسول العظيم:

يجود بالنفس إن شحّ الضنين بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وعلى الرغم من أن الكاتب ألّف كتابه بغية الفوز بالجائزة، وأنه قد حشر في كتابه من المفتريات والأكاذيب والدس ما يرضي الغلاة، حيث رفع من مكانة عليّ بصورة مبالغ فيها، مغفلاً دور رسول الله العظيم في تربيته، متجاهلاً أثر التوجيه النبوي الكريم في حياته وصياغة شخصيته منذ تربّى طفلاً في بيت النبوّة، إلى أن صار حكيم الأمة وفارسها وزاهدها المترفع عن الدنيا وزخارفها، ومع ذلك لم يفز الكتاب بالجائزة، ولم يحصل على تقدير العلماء المنصفين والأدباء المفكرين؛ الأمر الذي هبط بمستواه وأدى إلى منعه من التداول، وإتلاف ما طبع منه، نظراً لما ضمّ بين دفتيه من مفتريات، وما أثاره من شبهات.

* * *

الطائفة الصليبية المتشنجة تغذيها المؤسسات اليهودية الحاقدة!

أصبح واضحاً لدينا فيما نطالع ونتابع من مظاهر الحياة الأمريكية المعاصرة أن اليهودية الحاقدة لم تتسلّل إلى وسائل الإعلام والفعاليات الاقتصادية وحدهما، وإنما استطاعت بخبثها ودهائها أن تتسلّل إلى قلب الكنيسة الأمريكية، بحيث حلَّ كثير من المعتقدات اليهودية محل المعتقدات النصرانية، وصارت القناعة بما ورد في التوراة أقوى في نفوس الكثيرين من أتباع النصرانية من القناعة بما ورد في الإنجيل، حتى أصبح الانتماء لليهودية المقنَّعة واضحاً في مختلف المؤسسات والمحافل الدينية الكنسية.

ولا يقتصر مثل هذا التوجُّه على الطوائف الحديثة كما يسمُّونها، كالمجددين والمعمدانيين وشهود يَهْوَهْ... وغيرها من الطوائف النصرانية المعترف بها أو الدخيلة على النصرانية ـ كما يقول المطَّلعون الدارسون لتاريخ اللاهوت ـ بل امتدّت روح اليهودية الحاقدة إلى الطائفة التي تعدّ ذات صلة أقوى وأوثق بروما والفاتيكان، حيث أعلن الكاردينال (بيا) براءة اليهود من دم المسيح، مما ينسف أساس العقيدة النصرانية التي قامت على صلب المسيح ـ كما يعتقد النصارى ـ بوشايةٍ من يهوذا الإسخريوطي!.

ولقد ثبت من تتبُّع تاريخ حياة الكاردينال (بيا) أنه كان يهودي الديانة ثم تنصَّر، ليتسلّل إلى أعلى منصب في الفاتيكان بعد منصب (البابا)، والكاردينال (بيا) في هذا الموقف لا ينكر صلب المسيح، وإنما يؤكّده ولكن على غير يد اليهود، بل الرومان الذين كانوا يدينون إذ ذاك بالوثنية!.

ونعود لنتناول بالبحث أسلوب التشنّج الذي يتّبعه بعض (الطائفيين) في معالجة بعض القضايا، أو طرح بعض الآراء في إطار من الاستفزاز البغيض والتحدّي السافر، مما يدعو إلى شقّ صف الشعب الواحد، وهدم وحدته الوطنية التي يتباكى عليها أولئك الأدعياء ويحزنون.

ولعلّ ما كان يقوم في فلسطين والأردن ومصر وسورية وغيرها من أنماط الحياة المسالمة الهادئة بين المسلمين والنصارى في مختلف المدن والقرى، إنما يؤكد روح الألفة وأسلوب التعاون، ونمط البر والتسامح الذي يحمله كل فريق للفريق الآخر، مما يضع قول الله تعالى في كتابه العزيز منطلقاً للتطبيق، ويجعله ميدان ممارسة فعلية واقعية بين جنبات المجتمع وحياة الناس، حيث يقول سبحانه:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

أي أن الله يأمركم أن تحسنوا لغير المسلمين من أهل الكتاب الذين لا يتآمرون عليكم، وتجمعكم بهم ديار واحدة ووطن واحد، وأن تغمروهم بروح البر والعدل، وأن تبادلوهم معاملة طيبة بمثلها، والبر ـ لو فقه المتنطعون الطائفيون ـ أسمى درجة من درجات التعاون والمرحمة.

فلما حشر الغرب أنفه في ديارنا ممثلاً في النصرانية المتهوّدة المستوردة من الغرب، وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية على يد عدد من دعاة التنصّر وأدعياء التبشير؛ بدأ رداء البر ينحسر، وأخذت روح العدل والتسامح والتعاون تضمحل، لأن أولئك الدخلاء دسّوا بين الفريقين المتعاونين والشريكين المتراحمين المتفاهمين: عيون الضلال، وبذروا

بذور الفتنة، وأطلقوا يد الإفساد والعبث تعمل عملها، وتسهم في توسيع شقة الخلاف وتمزيق صف الأمة.

ولكي لا نكون هلاميين فيما نقول، غامضين فيما ندّعي، نسوق نمطاً من هذا التشنّج الطائفي البغيض، معرضين عن ذكر الأسماء، لا الوقائع؛ لأنها سجل حوادث موثّقة نرجو ألاّ يتّبعها أحداث يعمل على إثارتها الوالغون في مستنقعات الفتنة والولاء للأجنبي.

لقد أعرضنا عن ذكر الأسماء ادّخاراً للمنصفين أن يكون لهم دور في البناء وإقامة علاقات الألفة، وترفعاً عن ذكر المغرضين المتجنّين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الشيطان وحزبه من أعداء هذه الأمة، وكل غايتنا أن يتدارك العقلاء الموقف، وأن يضربوا على يد المفسدين، ويوقفوا المتطاولين عند حدّهم، فلا يتمادون مُضيّاً في دهاليز الباطل والحقد والضلالة.

١ ـ من حَمَلَة الأقلام في الأردن كاتب يعالج قضايا اقتصادية عديدة، يخوض في شؤون المال، فينجح كغيره من الكتّاب ويفشل، ويصيب ويخطئ، ولكنه يصرّ إلا أن يكون طائفي النزعة والتوجيه، صليبي العقلية والحوار في كل كلمة ينطق بها وكل عبارة يسطرها، ولا نعني بالطائفية هنا انتماءه لطائفته وولاءه لكنيسته، فذلك أمر يخصّه وقضية لسنا في موقف المناقش لها، ولكنّا نعني بذلك محاولة النيل من تراث هذه الأمة تاريخاً وحضارة وفكراً وتطلّعاتٍ مستقبلية، والإصرار على البحث عن مثالب يتوهّمها خياله المريض وتعصّبه المقيت، ليلصقها بالإسلام وينال من عقيدة التوحيد وأمة القرآن، وهو في مستوى من الضعف والهزيمة يصدق فيه قول الشاعر:

كناطحِ صخرةٍ يوماً ليوهِنَها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعِلُ

لقد كتب الرجل ذات يوم معلّقاً على خطباء الجمعة في المساجد الذين كشفوا خطة لإقامة كازينو قمار كبير في مدينة العقبة بالأردن على غرار كازينو لبنان، الذي أسهم ذات يوم في تحويل لبنان إلى ماخور كبير للعابثين، وأدى مع غيره من مؤسسات الهدم دوره في تدمير لبنان وتمزيقه، ولم يعجب الكاتب الطائفي المتشنّج مثل ذلك التوجّه الإرشادي البنّاء للخطباء والوعّاظ والعلماء، فاستغلّ صفحته الاقتصادية التي يشرف عليها في إحدى الصحف المحلية، محاولاً النيل من الخطباء الفضلاء، ملصقاً بهم أبشع الصفات، بأنهم يعملون على تدمير اقتصاد البلاد، محرّضاً عليهم جهات مسؤولة كانت أوعى منه حين فوتت عليه الفرصة، وقتلت الفتنة في مهدها ولم تشفِ غليله!.

ومن مواقف الرجل العدوانية التي تفوح منها رائحة العفن الطائفي الذي يترفّع عنه أبناء الأردن المتعاونون على البر والمرحمة مسلمين ونصارى، أنه حضر ذات يوم مؤتمراً عقد في عمان للبحث في بعض شؤون الصحوة الإسلامية، وقد دُعي له عدد من رجال الفكر والعلماء من مختلف ديار العربية والإسلام، فوقف ليعلّق على كلام بعض الباحثين بقوله:

«أنا لا أقبل أن يسمّى الأردن أو البلاد العربية الأخرى ديار الإسلام كما ورد على ألسنة بعض المتحدّثين في هذه الجلسة، ثم لا أقبل بحال أن يقال: بأن الإسلام يأمر أتباعه ـ كما تحدّث الباحثون ـ بالبرّ والتسامح مع أبناء الديانات الأخرى، لأن البرّ والتسامح يوحيان بقوة الإسلام وأتباعه كما يشيران إلى ضعف الآخرين وحاجتهم إلى الحماية والرعاية، وهو ما لا أقبل به ولا أرضاه».

وانطلق السادة العلماء والمفكّرون من كل أقطار الأرض يستهجنون

تشنّج الرجل المريض بالطائفية، ويردّون عليه بعلم وحزم وتسامح، وبأسلوب هادف حاسم أصاب الرجل بذهول، وقزّم غطرسته ليعود إلى حجمه الذي هو أهلٌ له، دون استعلاء مصطنع ولا مباهاة وارمة!.

ـ وفي المؤتمر الذي عقدته الجامعة الأردنية لإحياء ذكرى (الصوفي وابن النفيس) العالمين المسلمين المعروفين، والذي بدأ صباح يوم الإثنين الواقع في ١٢ صفر ١٤٠٨هـ الموافق ٥/ ١٠/ ١٩٨٧، وقف الكاتب نفسه ليقول في ختام حفل الافتتاح:

«لو كنت أعلم أن الصوفي هذا ليس عربياً، وأنه من منطقة بحر قزوين كما ذكر المتحدّثون عنه لما جئت هنا، ولا حضرت هذا المؤتمر». فكشف عن جهل مطبق وأمية فكرية أصيلة.

وجاء الرد العلمي الموضوعي الحاسم الموزون من عدد من العلماء المختصّين الذين يعرفون قيمة العلم والعلماء ويقدّرون المعرفة والحق لذاتهما، والفكر لقيمته الحضارية:

قال الدكتور سليمان قضايا ـ وهو عالم سوري يحمل الجنسية الفرنسية، ويعمل في مجال البحث العلمي وحقول المعرفة المتخصصة ـ معلّقاً على سطحية الدكتور الطائفي المتشنّج:

«هذا الكلام غير علمي ولا عقلي ولا منطقي، فالعالم كله يفخر بهذا العالم الجليل ـ الصوفي ـ وبكل العلماء المسلمين».

أما العالم الروسي الدكتور فيتالي الذي يعمل رئيساً لقسم الدراسات الشرقية بالمعهد الاستراتيجي بموسكو، فقد صفع الباحث الاقتصادي المتغطرس بقوله:

«ليت عندنا مثل هذا العالم لنفخر به، وليكن من أي بلد في هذا الكون الواسع، المهم أن يعيش بيننا بعلمه، وأن تفيد الإنسانية من معرفته».

وعلق عالم ألماني متخصص في الدراسات الشرقية:

«نحن في الغرب نعرف هذه المنطقة منذ ظهور الإسلام بأنها منطقة إسلامية عربية، ويصعب علينا بحكم ثقافتنا أن نفرق بين الكلمتين».

وكان الردّ درساً واعياً من عالم أجنبي يعرف الفرق الكبير بين عروبة محمد وعروبة أبي جهل!.

لقد ذكرني هذا الدرس بموقف لشاب روسي في (لينينغراد) ألقاه على رجل عربي (متمركس) وهو يقف أمام تمثال بطرس الأكبر ـ في فترة الحكم الشيوعي في مدينة لينينغراد يومذاك ـ ويقول في تبعية ذليلة وهوان هزيل:

لماذا تبقون هذا التمثال في بلادكم التقدمية، وهو لرجل رجعي مثل بطرس الأكبر؟.

وجاء الرد الروسي صفعة على وجه كل من لا يحسن الانتماء لتراثه والولاء لأمته وحضارته:

لولا أنك ضيف على بلادنا لكتبت للجهات المختصة أن تخرجك فوراً خارج الحدود.. إن هذا الذي تعترض على وجود تمثاله بيننا يمثّل فترة حضارية من حضارة بلادنا، ونحن نعتبره أحد بناة روسيا في حقبة من الزمن!.

أرأيتم كيف يتضاءل المنهزمون من أبنائنا في دوّامة التخبّط وتيه الضياع؟!.

* * *

المفكّرون المنصفون من النصارى العرب

ومثلما ذكرنا الجانب السلبي وأبرزناه من مواقف بعض النصارى الطائفية البغيضة وألمحنا إلى بعض مواقفهم الإيجابية الخيّرة، فإن من واجب الإنصاف أن نذكر بتوسع مواقف لآخرين منهم، كانت إيجابية منصفة تدعو إلى وحدة الصف وجمع الكلمة، سواء ما جاء أقوالاً لبعض المفكّرين والأدباء منهم، أو قصائد لبعض الشعراء، الأمر الذي يسهم في تنقية الأجواء، ويدعو إلى نبذ الفرقة والفتنة والخصام.

ولقد اخترت عطاءً فكرياً لكاتبيْن ومفكريْن قدّما للمكتبة العربية روحاً من التضامن، ودعوة من التعاون على البر والخير والمرحمة، أحدهما الكاتب المصري الدكتور نظمي لوقا، والثاني السياسي الفلسطيني أميل الغوري، بالإضافة إلى أقوال شتى وشهادات منصفة من فلاسفة نصارى العرب وشعرائهم ومفكّريهم في سورية ولبنان والأردن، مما سيأتي الحديث عنه في الصفحات التالية.

ويقيني أن مثل هذه الروح وهذا التوجيه يمكن أن يستمر ويتعمّق لولا تدخّل الأجنبي، الذي أسهم في إقامة مؤسسات حزبية وثقافية وسياسية وشجّع على بث روح الفرقة وزرع الخصام، مما عمل على مسخ روح البر بين المسلمين والنصارى، وجعل روح التعاون باهتة ودعوة البر غير مقنعة، فتحوّلت قوافي الشعر اللبناني الداعي إلى التآخي نصالاً حادة، أسهمت إلى حد كبير في تمزيق الصف ودمار المجتمع ورفض اللقاء، مما جعل من لبنان مجموعة من الناس تعدّدت أهدافهم، وتشرذمت ولاءاتهم بين جهات الكون الأربع!.

ومن الإنصاف أن نذكر لصاحب الفضل فضله، وللمنصف إنصافه، ومثلما أشرنا إلى نمط من غثاء أصحاب الأقلام الطائفية المغرضة، فإن من الإنصاف أن نذكر نمطاً من الرجال المنصفين الذين لم يدينوا بالإسلام، ولكنهم كانوا على مستوى خيِّرٍ من الوعي والإنصاف والبر، وحُسْن التأتّي وذِكْر ما رأوه حسناً وما اعتقدوه حقاً في هذا الدين القويم وفي نبيه الكريم.

ومن هؤلاء رجل يُعدُّ من أركان الحياة الدستورية البرلمانية في سورية، بل في الوطن العربي بأسره، وهو الأستاذ فارس الخوري الذي كان يعتز بالإسلام ثقافة وحضارة وفكراً وتراثاً، وإن كان يدين بالنصرانية، وكانت مواقفه المؤيّدة للحركة الإسلامية في سورية واضحة لا التواء فيها ولا مواربة، قناعة منه أن القائمين عليها رجال جديرون بالدعم والتأييد، وأن فكرهم الذي يحملون، ورأيهم الذي به يجاهرون يمثل العدل والإنصاف والقيم المثلى للحياة الإنسانية، فكان في كل مرة تخوض فيها الحركة الإسلامية المعركة الانتخابية لملء المقاعد النيابية في سورية يشارك رجالها الرأي، ويقدّم لهم العون والمساعدة، حتى بأفراد أسرته الذين كانوا يتقدّمون لصناديق الاقتراع في الانتخابات النيابية في دمشق ليُدْلوا بأصواتهم إلى جانب رموز الحركة الإسلامية، الذين يعلنون على ملأ من فوق المنابر وفي برامجهم الانتخابية أن الإسلام عقيدة الأمة ونظام مسيرتها ومنهاج حياتها.

ومن هؤلاء كذلك الأستاذ مكرم عبيد الزعيم المصري القبطي، الذي كان يرأس حزب الكتلة الوفدية، ويستشهد بآيات القرآن الكريم كلما خطب في محفل أو تحدّث في لقاء. وكان على علاقة حميمة بالإمام الشيخ حسن البنا، يشاوره في كثير من الأمر، ويسدي له النصح في كثير من الشؤون العامة.

ومن وفاء الرجل أنه كان أحد الرجال السياسيين الشجعان القلائل الذين لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد الواحدة ممن شيّعوا جنازة الإمام الشهيد حين قتله (البوليس السياسي المصري) في مؤامرة دُبِّرَت في عهد الملك فاروق، وقد أُرعب الناس في مصر يومذاك حتى لا يُشَيِّعوا الجثمان، بعد أن زجوا بعشرات الألوف من أتباعه وأنصاره في السجون.

ولابد أن نذكر بالخير موقف المفكّر اللبناني الماروني الأستاذ أسعد داغر الذي كان يبدي حماسة شديدة في تعاونه مع الأستاذ حسن البنا، لعقد مؤتمر شعبي يبحث القضية الفلسطينية دون هيمنة للحكومات عليه، وقد بلغ في قناعته وتعاونه مع الأستاذ مبلغاً جعله يعتقد أن لا سبيل لحلّ القضية الفلسطينية إلا بالإسلام، وعلى وجه التحديد بالطريقة الجهادية المثلى التي يراها الأستاذ آنذاك، مما دفع حكومة العراق في أعقاب نكبة ١٩٤٨ ـ وكان يرأسها السيد نوري السعيد ـ أن تأمر بإخراجه من العراق فور وصوله، بحجة أنه جاء إلى بغداد ليبشّر بلواء حسن البنا[1]، وبنشر أفكار جماعته؛ وقد أصرّت الحكومة العراقية على موقفها في إخراجه، لأن أسعد داغر يؤمن إيماناً راسخاً بالحل الإسلامي الجهادي للقضية الفلسطينية، ولم يشفع له قربه من نوري السعيد وصداقته الشخصية له.

ومن الشخصيات الإسلامية ـ المشهود لها بالنزاهة والاستقامة ـ التي كانت تثني الثناء العطر على مواقف الحماسة والإنصاف التي عرف بها

---

(١) من مقابلة شخصية مع الأستاذ أكرم زعيتر ـ يرحمه الله ـ بتاريخ ١/ ٣/ ١٩٨٧م.

الأستاذ أسعد داغر؛ الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب تفسير المنار المشهور؛ ومما يروى في هذا المقام أن الأستاذ إسعاف النشاشيبي قدَّم الأستاذ أسعد داغر في الحفل الذي أقيم بيافا تأبيناً للشاعر الشيخ عبد المحسن الكاظمي باسم (محمد أسعد داغر) نظراً لشدة قربه من الإسلام، وتعاطفه مع المسلمين في أفكارهم وقضاياهم التي يعتبرها قضاياه.

ومن أحسن ما ورد على لسان مفكّر نصراني لبناني معاصر، ما سجّله الأديب الشاعر الفيلسوف ميخائيل نعيمة عن النبي ﷺ، حيث يقول:

«أما معجزة العرب الكبرى فهي القرآن، وهي وحدها تستطيع أن تجعل من العرب قوة أين منها قوة الأساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية؟ وأين منها قوة المال والرجال؟ ذلك أنها أقامت للعرب ولغير العرب هدفاً من حياتهم، وكانوا بغير هدف، واختطّت لهم طريقاً إلى الهدف وكانوا بغير طريق، وبرهنت لهم بحياة النبي وصحبه أن الهدف مستطاعٌ بلوغه على من سار في الطريق، ولو لم يترجم النبي وصحبه القرآن إلى أفعال لما كانت المعجزة معجزة.. «أجل إن معجزة العرب هي القرآن»[1]».

وممن كانوا يبدون تفهُّماً جيداً ـ بين النصارى العرب في الأردن ـ لمواقف الإسلاميين وتطلّعاتهم: النائب والوزير السابق القاضي يعقوب معمر، الذي عُرف باتّزانه ووقاره، وكان يمثّل نصارى اللواء الشمالي في مجلس النواب الأردني، وكانت الحركة الإسلامية تدعمه وتسانده، لأنه

---

(١) ورد هذا التضمين في كلمة ألقاها الأستاذ أكرم زعيتر في حفل كبير أقيم بعمان في ذكرى المولد النبوي الشريف، والتضمين مستلّ من كلمة زوَّدَنا بها الأستاذ أكرم زعيتر.

كان يقف موقف التعاون من أنشطتهم الاجتماعية والتأييد لكثير من آرائهم السياسية؛ الأمر الذي دعا بعض (الظرفاء) أو (الخبثاء) أن يطلقوا عليه ويشيعون أنه رئيس قسم ـ موهوم مزعوم ـ هو قسم النصارى في جماعة الإخوان المسلمين، لأنه كان نصراني الدين، إسلامي التوجُّه السياسي والمواقف البرلمانية، وقد نسوا أن عدداً من زعماء الأقباط في مصر كانوا على علاقة طيبة مع الإمام حسن البنا وصلة حسنة تسهم في إزالة ما يحاول بعض المغرضين أن يثيروه من فتنة طائفية كريهة بين المسلمين والنصارى في مصر.

ومما ترتاح له النفس ويطيب به الخاطر ويسهم في وحدة الصف وجمع الكلمة؛ مقال هادف نشره الكاتب الأديب جورج حداد، وهو عربي أردني من مدينة السلط الأردنية، في ذكرى المولد النبوي الشريف في صحيفة الدستور اليومية بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٤٠٩هـ الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٨م، حيث قال:

«أكتب هذا في ذكرى مولد النبي العربي الأمي الكبير العظيم، بل الأعظم بين موفدي السماء ورجالات التاريخ وصانعي النهضات.

إنه اليتيم الذي نسج الله تعالى من يتمه خيمة بحجم العالم، يستظلّ بها كل ضال وحائر، وكل يائس ومأزوم، وكل يتيم وخاطئ، وكل عاشق للحق والنور والعدالة...

إنه الصادق الأمين والفارس الشهم والطود الشامخ، الذي رهن حتى دقات قلبه الكبير الكبير، لتحقيق الأمر الخطير الخطير الذي اختاره له مَن أرسله بالحق بشيراً ونذيراً.

إنه الذي ما ساوم على حق وما نام على ضَيْم، وما ترك لكل بهارج

الدنيا وزخارف الكون، بما فيها الشمس والقمر، أن تغريه أو تثنيه عن الخروج بالإنسان من سراديب الظلمة والجهالة والأفاعي إلى مشارف النور والحب والعقل!.

إنه الأكبر من كل الكلمات.. وإنه الأعمق من كل المعاني.

إنه الأكثر وضوحاً من الوضوح نفسه.

والأشد ألَقاً من العدالة نفسها.

والأسطع بهاءً من النور.

والأروع عطاء من الحب».

ويتضح انتماء العربي النصراني لعروبته واعتزازه بأمجاد الإسلام وثقافة القرآن من القصة أو الخاطرة التي كتبها الكاتب العربي النصراني من أبناء مدينة السلط الأردنية الأستاذ سليمان المشيني بعنوان (حنين إلى الأقصى) في مطلع كتابه (موعد في القدس)، حيث يقول:

«أدى المؤمنون صلاة الجمعة في رحاب المسجد الأقصى المبارك، وانصرفوا يغادرون المكان الطاهر متوجّهين إلى بيوتهم وعلائم الغبطة والرضى تغمر وجوههم، فقد أدّوا الفرض ونعموا بالصلاة وطلب الغفران من الرحمن الرحيم، بينما بقي (علي) في مكانه لا يريم، لقد أحسّ بميل للبقاء أطول فترة ممكنة، بينما كانت عيناه تطوفان بأرجاء المسجد المبارك، حيث أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله الأمين من المسجد الحرام، وخامر (علي) شعور مفاجئ بأنه يتزوّد من المسجد الحبيب إلى نفسه، الأثير إلى روحه بنظرة أخيرة؛ فأبعد عنه الخاطر، واهتزّ كعصفور بلّله القطر، وتمتمت شفتاه: «لا قدّر الله»!.

ثم يختم الكاتب قصته تلك أو خاطرته الأليمة بقوله:

«إن أملنا بالله كبير.. وفي هذه اللحظة انطلق صوت المؤذن يسري

في الآفاق: الله أكبر، الله أكبر. . . لا إله إلا الله؛ فاستأذن الطبيب ليؤدي الصلاة وهو يقول للمريض: سأدعو لك، ومع صوت المؤذن أحسّ (علي) بأنه يتوجّه إلى المسجد الأقصى المبارك يؤدي الصلاة في رحابه القدسية. . فأغمض عينيه واستغرق في سبات عميق».

ويشير عنوان أقصوصة أخرى هادفة يقدّمها الكاتب العربي الأردني نفسه (الجنة تحت أقدام الأمهات) في كتابه (موعد في القدس) الذي أشرنا إليه، إلى انتماء حضاري فكري لغوي هادف يدعو فيه قومه إلى السير على هدى النبي العربي الكريم وتتبّع خطاه الحضارية ودعوته الإنسانية السامية.

ألستم معي أن هذا الأديب الأردني العربي المسيحي أقرب إلى معالم الحضارة الإسلامية وروحها من كثيرين ممن يحملون ـ وهم بعيدون عن أمتهم منسلخون عنها ـ أسماء إسلامية في وثيقة الميلاد الرسمية، بعد أن استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، واتّبعوا غثاء السيل، وشربوا من الزبد الذي يذهب جفاء!!.

* * *

الدكتور نظمي لوقا
والموسوعة الإسلامية الكبرى

الدكتور نظمي لوقا مفكّر وأديب مصري قبطي يعتز ويفخر بالثقافة الإسلامية، وزوجه الكاتبة المصرية المعروفة السيدة صوفي عبد الله، التي عملت مدة من الزمان طويلة محرِّرة في صحف دار الهلال، تعالج قضايا البيت والأسرة والمرأة بصورة يلمس منها القارئ الاتزان والالتزام بكثير من قيم الخير ومعاني الفضيلة، وقد كان الدكتور لوقا على مستوى من الجرأة والشجاعة وتحمّل المسؤولية، بحيث عمل على إصدار عدد من الكتب الإسلامية عن النبي ﷺ، وعن الإسلام ورسالته تحت عنوان (الموسوعة الإسلامية الكبرى)، وقد خطط لها أن تصدر تباعاً في عشرين كتاباً، صدر منها:

١ ـ محمد : الرسالة والرسول

٢ ـ وا محمداه: تمحيص وإنصاف.

٣ ـ شخصية الرسول بين الحقيقة والأباطيل

٤ ـ وإنك لعلى خلق عظيم

٥ ـ سبيل الله واحدة

٦ ـ مع الرسول

٧ ـ تحت الراية البيضاء

وقد أعلنت دار الكتب الحديثة بالقاهرة التي تولّت نشر أول كتاب

في الموسوعة عن هذا العمل الإسلامي الهادف الذي يكتبه قبطي مصري منصف بقولها:

«إن الكتاب الذي بين يديك هو الحلقة الأولى وحجر الأساس من موسوعة كبرى تتناول مجد الإسلام وتراثه وحضارته تناولاً جديداً. فبميزان نزيه مستقيم يقدّم الدكتور نظمي لوقا منهجاً عقلياً نفسياً إنسانياً يقوم على تقديس الحقيقة من حيث هي، بصرف النظر عن نسبتها إلى هذا الفريق من الناس أو ذاك.

وحقيقة الإسلام والتراث الإسلامي خليقة على ضوء هذا المنهج أن تعمّ بنورها كل عقل متفتّح للحقيقة، وكل قلب لا يصد عن الصدق.

إن هذه الموسوعة بكتبها، التي تجاوز عددها العشرين كتاباً، أصدق حملة على العصبية العمياء، وأمجد كفاح في سبيل انتصار النزاهة وسيادة سلطان الحق والعدل والكرامة البشرية. ولا قيمة لإنسان لا قيمة للحق لديه».

أما كتابه (وا محمداه: تمحيص وإنصاف)[1]، وهو الكتاب الثاني من الموسوعة، فقد جاء فيه على لسان الدار الناشرة إعلان عن (الموسوعة الإسلامية الكبرى)، حيث تقول:

«عمل علمي يتم تباعاً في أكثر من عشرين كتاباً، هدفها إبراز المضمون الإنساني للإسلام والثقافة الإسلامية في الصورة التي تعم بنفعها وفضلها جميع بني الإنسان.

أما وسيلتها فالمنهج العقلي النفسي الذي يقوم على المنطق النزيه والنظرة المحايدة والتفكير الحر».

---

(١) وامحمداه: تمحيص وإنصاف، للدكتور نظمي لوقا، الطبعة الأولى، دار الحمامي للطباعة بالقاهرة، ١٩٦٠.

ويأتي بعد ذلك الكتاب الثالث من كتب الموسوعة بعنوان: (شخصية الرسول بين الحقيقة والأباطيل)، وهو كتاب كما أعلن عنه: يمحّص مفتريات المستشرقين على قيامه برسالته.

وقد خصّص المؤلف هذا الكتاب للرد: «بالمنهج العقلي النفسي الإنساني على جميع المفتريات التي رمى بها المغرضون نبيّ الإسلام، ردّاً يقنع كل إنسان، ويفرض احترام شخصيته الجليلة على المؤمنين بالإسلام وبغير الإسلام على السواء»[1].

ويمضي الكاتب حيناً والناشرون حيناً آخر في تقديم كتب المجموعة بما يليق بها من تقدير وما يستحقه العمل المنصف الجاد من تكريم، حتى لتحسب وأنت تقرأ الإعلان أو التقديم أن الدكتور نظمي لوقا من شدة حماسته وتقديره وإعجابه يطوف بقلبه حول الكعبة، أو يسعى بعقله بين الصفا والمروة، هداه الله لأقوم سبيل.

ويعتبر الدكتور نظمي لوقا من أبرز المفكّرين المعاصرين الذين كتبوا في القضايا الإسلامية، وسجّلوا آراءهم المنصفة النيّرة بصورة يحسّ معها القارئ بحرارة العاطفة ودفء المودة في ما يكتب الرجل ويبدي من آراء لا تقل حماسة عن آراء كبار الكتّاب المسلمين الذين نذروا أنفسهم لإلقاء الضوء على ما يحاول المغرضون إخفاءه من جوانب العظمة والعطاء في دين الحق ورسالة الإنسانية الخالدة.

وأعود إلى فكر الدكتور نظمي لوقا، الذي طاف بالإسلام وحلّق في أجوائه، وعاش مع رسول الإنسانية الفذّ ﷺ في أجواء من التوقير الواضح والاحترام الغامر، حيث نراه يبدأ مقدمة كتابه عن الرسالة والرسول بقوله:

---

(١) محمد: الرسالة والرسول، الناشر دار الكتب الحديثة، شارع الجمهورية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٩م.

«من يغلق عينيه دون النور يضير عينيه ولا يضير النور، ومَن يغلق عقله وضميره دون الحق، يضير عقله وضميره ولا يضير الحق.

فالنور منفعة للرائي لا للمصباح، والحق منفعة وإحسان إلى المهتدي به، لا إلى الهادي إليه. وما من آفة تهدر العقول البشرية كما يهدرها التعصّب الذميم الذي يفرض على أذهان أصحابه وسرائرهم ما هو أسوأ من العمى لذي البصر، ومن الصَّمَم لذي السمع؛ لأن الأعمى قد يبقى بعد فقد البصر إنساناً، والأصم قد يبقى بعد فقد السمع إنساناً.. أما من اختلّت موازين عقله أو موازين وجدانه، حتى ما يميز الخبيث من الطيّب، فذلك ليس بإنسان، بالمعنى المقصود من كلمة إنسان.

وبهدي من هذا النهج وجدتُ من واجبي أن أكتب هذه الصفحات، موقناً أن الإنصاف حِلْية يكرم بها المنصف نفسه قبل أن يكرم بها من ينصفهم».

ثم يقول في تجرّد وتَسامٍ:

«وما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]!.

فأي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بديدن أقل منه تسامياً واستقامة؟..».

ويبدأ المؤلف كتابه بفصل عن «صبي في المسجد» يتحدّث فيه عن علاقته بالإسلام يوم كان حدَثاً كيف كان يتردّد على مسجد لشيخ فاضل

بمدينة السويس، يتلقى على يديه علوم البلاغة والقواعد، ويأخذ عنه التلاوة والترتيل كأحسن ما تكون التلاوة والترتيل؛ لأن والد الصبي (القبطي) مولع بالعربية مفتون بلغة القرآن، فأسلمه للشيخ يعلّمه من علوم اللسان العربي ما يمكن أن يجعله في مقبل أيامه أديباً مفكّراً ذا فصاحة وبيان؛ الأمر الذي يؤكد سرّ العلاقة بين (لغة القرآن) أدباً و(رسالة القرآن) ديناً وعقيدة.

ومن هنا كانت بداية الرحلة التي انطلق فيها الصبي إلى آفاقٍ من القرآن أرحب، وميادين من رسالة الحق أوسع وأشمل، حتى بات صاحب عقل وصاحب قلم وصاحب لسان، كلها تحمله إلى روض الإيمان وحديقة الإسلام، يتفيّأ ظلالها ويقطف من ثمارها أطيب الجنى.

ويمضي الدكتور نظمي لوقا في كتابه هذا، فيتناول الإسلام عبر (الآية الكبرى) التي عبّر بها عن الوحي وصدق الرسالة، ويتحدّث في كتابه عن (دين الإنسانية) لا دين شعب بعينه، كما خصَّ بذلك بنو إسرائيل يوم دعاهم أنبياؤهم إلى الإيمان بالله وحده، ثم يتناول خصوصيّات الإسلام وتَمَيُّزه عن غيره بأنه دين البشر، في حين جاءت المسيحية النقية التي جاء بها المسيح (من نصوص كلامه لا ما أُلحق بكلامه وسيرته من التأويل) لتكون دين القلب الإنساني الذي لم يورد في حسابه المعاملات والحياة الدنيا برمّتها، وهذه ميزة الإسلام على غيره من الأديان.

ويتحدّث الدكتور لوقا عن (الله) مؤكّداً وحدانيته داعياً إلى عبادته وحده دون سواه، باعتباره الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. . وما عدا ذلك من معتقدات يرى الدكتور لوقا أنها ملحقة بالدين ملصقة به، دون أن يكون لها جذور أو أصول راسخة ثابتة.

ثم يتحدّث عن (الإنسانية) و(النبوّة) و(حواء) و(الزواج) و(الجهاد

الأكبر)، وعن علاقات الناس بعضهم ببعض، وعن الحياة في رحاب الله، وعن (شجاعة الإيمان)، مما يجعلك تُكْبِر الرجل فيما يعلنه ويجاهر به، وتقدّر له عمله الفكري الكبير الذي صاغه في قالب أدبي رفيع المستوى مشرق الديباجة، يضعه في مصافّ أروع الأدباء وأكثرهم عطاءً، وأنقاهم فكراً وأنبلهم غاية.

وننتقل إلى الكتاب الثاني من الموسوعة الإسلامية التي خطّط الدكتور نظمي لوقا لها ووعد بإخراجها، فنجد أنفسنا أمام كتاب فيه من حرارة الدفاع وحماسة المحبّ ما لا نحس به حتى في كتب المنصفين من المستشرقين، وذلك هو كتاب (وامحمداه: تمحيص وإنصاف).

صدر الكتاب في القاهرة عام ١٩٦٠، وقد طُبِع في دار الحمامي للطباعة بشارع الجيش ٢ كنيسة اللاتين، وقد صدَّره المؤلف بإهداء لزوجه السيدة صوفي عبد الله، قال فيه بلغة غاية في البلاغة والفصاحة واستنارة الفكر واستقامة اللسان:

«إلى السائرين في الظلمة.

وإلى من يلوح لهم ـ من أنفسهم ـ فجر جديد.

وأيضاً إلى الإنسانة الكبيرة: صوفي عبد الله.

صدقتني وكذبني الناس، ونصرتني وقد خذلني الناس، ووصلتني وقد قطعني الناس.

فكانت نعم الزوج والأم والنصير والظهير.

لم تأخذها الصيحة ولم تجفل أمام الطوفان، قالت:

لا تهن يا رجل، امضِ في سبيلك على بصيرتك، ولا تتهيّب من الحق شيئاً...».

ثم يبدأ الكتاب بعد ذلك بعنوان يقول: هنا أقف! يضمنه سؤالاً وجواباً، فيقول:

«أما السؤال فقد تخيّرته من مئات الرسائل التي جاءتني على أثر ظهور أول كتب هذه الموسوعة، وهو كتاب (محمد: الرسالة والرسول).

تخيّرته لما بدا فيه من براءة، ولما في الإجابة عنه من فائدة للناس برفع التباس وقع فيه سواه، منهم من جهر به ومنهم من طواه.

السؤال: فيم اهتمامك ـ وأنت المسيحي ـ بالدفاع عن رسول الإسلام؟

والجواب: إن هذا السؤال ينبئ عن عدم اطّلاع أو عدم اقتناع بالمفهوم الحقيقي للمسيحية، فلُباب المسيحية وجوهرها الأصيل أنها دعوة المحبة القلبية الكاملة الشاملة، تعمّ بحبّها العدو والصديق والمخالف والموافق.

فواجب المسيحي حقّاً أن ينطوي على الحب لا الكراهية، وعلى الودّ لا الحقد، وأن يدافع عن المظلوم والمفترى عليه، وإلا كان مفرّطاً في جوهر عقيدته المسيحية، ولن يغني عنه بعدئذٍ أن يكون صوّاماً قوّاماً...

ولا يستطيع المرء أن يكون محبّاً ما لم يستطع أن يكون منصفاً، فالإنصاف مرتبة أقل من الحب «ومن لم يكن أميناً على القليل لا يؤتمن على الكثير»... كما جاء في الإنجيل.

وبهذا الاعتبار كان الأخلق أن يعجب المتعجّب مِنْ منتسبٍ للمسيح يفتئت (كفئة من المستشرقين) على صاحب رسالة اهتدى بها الملايين، من ضلال الكفر إلى عبادة رب العالمين.. لا أن يعجب المتعجّب من مسيحي دفعته عقيدته الصادقة المستنيرة إلى الدفاع عن صاحب تلك الرسالة المظلوم، وإلى إنصافه وإيلائه ما هو حقيق به من الحب والتعظيم...

وإني لأربأ بنفسي أن أكون الذي يفتئت أو يتواطأ على مثل ذلك الافتئات اللئيم. . . ».

ويمضي بعد ذلك في كلمة يتحدّث فيها عن (معنى الشرف والشرفاء)، فيقول:

«عِرْضُ أي إنسان شريف ينبغي أن يكون عِرْض جميع الشرفاء في رحاب الكون أجمع، على اختلاف مذاهبهم في الرأي، ومعسكراتهم في الاعتقاد».

« قاعدة لابدّ من تقريرها وتثبيتها في الأذهان والوجدان، لأن الأحداث تتكشّف في كل يوم، بل وفي كل ساعة، عن شديد حاجة الناس إلى توضيح معنى الشرف، أو العرض العقلي والرّوحي، وإلى توكيده بلا انقطاع.

إن كل فرية ظالمة يُرمى بها إنسان فاضل ينبغي ألا يتأذى منها ذلك الفاضل المظلوم وأنصاره وأولياؤه دون سواهم، ثم يقف من عداه وعداهم من الفضلاء الشرفاء موقف غير المكترث الذي لا يعنيه من الأمر شيء، مادامت أشخاصهم المحدودة لم يمسسها أذى. . .

معاذ المروءة!.

إن كان هذا الموقف هو الذي يرتضيه لنفسه الأناني، ومن مصلحته الخاصة مدار حياته الوحيد كأنه الحيوان الأعجم، فكيف يمكن أن يرتضيه لنفسه من مدار حياته قيم أخلاقية ومبادئ تسمو فوق اعتبارات المصلحة الفردية والحزبية والطائفية، لأنها لُباب الإنسانية الباقي وجوهرها الكلّي الشامل؟».

وتحت عنوان (منطق الأكذوبة) يقول الواعي والمفكر النبيل:

«الأكذوبة شيء حقير، ولكنه لا يخلو من منطق حقير من جنسه. . .

وموضوع هذا الكتاب الثاني من موسوعتنا الإسلامية هو: ما وجّهه أهل الافتراء إلى (شخص) الرسول العربي من مفتريات. ننظر فيها ونمحّصها، لأنه من الخير للناس أن تُزال الأقذار والأوضار، لما في بقائها من خطر على سلامتهم وأبصارهم.

إن مَن ينظف زجاجة مصباحه، أو عدسة منظاره، أو حدقتي عينيه؛ إنما إلى نفسه يحسن، لا إلى المصباح، أو المنظار، أو حدقتي العينين. فهو الذي ستصح له بعد ذلك الرؤيا، وتتطهّر نفسه من خبث الخطأ الغاشم والرأي الظالم. . .

ولكن الأكذوبة نوع عنيد سمج من القذارة: يتوالد كما يتوالد الذباب، وينتشر انتشار الجراد، إلا أنه ألصق بالمصابين به من جلودهم. . .

آفة الأكذوبة أنها لا توضع على لسان الكذّاب كما يحطّ الذباب أو التراب مثلاً، بل هي تنبع من لسانه، ومما هو أبعد من ذلك مسرباً وأعمق مدخلاً: تنبع من ذات نفسه! فمن جاءه يريد انتزاع الأكذوبة لا عجب أن جاهده جهاد مَن يدفع عن نفسه التي بين جنبيه. .».

ولا أحب أن أورد هنا كل ما جاء في الكتاب من مواقف الدفاع عن الحق، وإبراز جوانب العَظَمة في شخصية الرسول العظيم، ولكني أسوق عناوين المفتريات التي كان الظالمون ومازالوا ـ في دياجير ظلمة النفس وانغلاق القلب ـ يوجّهونها للنبي العظيم، لنرى أي إنصاف يتحلّى به الرجل الفذّ والكاتب القبطي المنصف حيث يناقش:

ـ «فرية الجهل». . ويفرق بموضوعية بين أميّة الحرف وأميّة العقل والفكر.

ـ و«إنما يعلمه بشر» ليرد على الذين زعموا أن القرآن من وضع بشر يملونه على سيد العالمين.

ـ و«جموح الشهوة» فيناقش هذه الفرية عند الحديث عن تعدد الزوجات.

ـ و«المصانعة» حيث يناقش الفرق بين إنسانية الرسول ومجاملته وحسن تكريمه لمن يستحق التكريم، وبين نفاق المنافقين وزيف الكاذبين!

ـ و«النزوة» و«زواج المحارم» و«انتهاك الطفولة» مما يترفّع عنه ذوو المروءة، فكيف بمن وصفه ربّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويختتم المؤلف كتابه بكلمة لا أروع منها بين ما يكتب الناس ويعلنون ولا أحكم، حيث يقول:

«ماذا بقي من مزعم لزاعم.. ماذا بقي من فرية لمفتات؟

تزوج الكثرة من النساء، ولكن تلك الكثرة لم تكن مطلوبة ولا مرغوبة في ذاتها؛ لأنه ضير بها في الشق المكدود من حياته، ولم يكن له بها انتفاع يُحسد عليه...

تزوّج الكثرة من النساء، ولكنه زواج التكليف والتصدّي لحمل التبعات والأعباء: أعباء النخوة أو مقتضيات مصلحة الدعوة، ثم ظلّ حنينه بعدها لسيدة النساء، لعجوز من قريش حمراء الشدقين، في سنّ أمه أو أسنّ، وتلك هي خديجة بنت خويلد، التي ظلّ معها على سنّة التوحيد، لم يجنح إلى التعدّد...

لم تملأ آفاق نفسه الكبيرة امرأة سواها، وأنكرت نفسه الكبيرة أن تشغل مكانها الخالي امرأة أو الكثرة من النساء...

ذلك هو محمد الذي أرجفوا في أمره بما أرجفوا.

أين فرية الشهوة من شباب عفّ، ورجولة متنسّكة، بغير تكليف سابق، وفي مدينة لا همّ لأهلها إلا الإسراف على أنفسهم في الشهوة؟ .

أين فرية التهالك على الشهوة من كهولة ناهضة بأعظم ما عرف التاريخ من عبء، وأخطر ما جرى فيه من ثورة في أعماق الضمير وآفاق السياسة والاجتماع في آن واحد؟ .

أين فرية الجهل من حكمة تزن أحلام عشرات الملايين فترجح عليها؟ .

أين فرية الولوع بالنساء من أريحية تأوي وتصون فئة من العجائز المترمّلات كرامةً لهنّ ولمن ماتوا عنهن؟ . . .

أي قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا الخُلق العظيم؟ .

لا خيرة في الأمر: ما كان هذا الرسول أخا شهوة! .

لا خيرة في الأمر: ما كان هذا الرسول طالب دنيا! .

لا خيرة في الأمر: ما كان هذا الرسول مقارف دنايا . . .

لا خيرة في الأمر: زهد هذا الرسول والدنيا مبذولة بين يديه، وعفّ واللذات حاضرة لا جناح فيها عليه. ووفّى حيث لا يستغرب النسيان، وصان العهد حيث لا يطالبه بتلك الصيانة إنسان. ولكنّه الخُلق العظيم . . .

ولكنه الخلق الذي امتروا فيه فرموه ـ آثمين ـ بكل وصف ذميم . . . وأملى لهم في الافتراء ضمير ميّت، وعقل ضعيف ومنطق سخيف . . .

لا خيرة في الأمر، ما عفّ بشر إن لم يكن هو بالزاهد العفيف، وما أوتي الحكمة أحد إن لم يكن هو بالحكيم الحصيف .

فسلام عليه بما رُزق من حكمة ونخوة، وما تمثّل به للناس من جميل القدوة، وما وجهه إليهم من صالح الدعوة. . .

وسلام على المنصفين المقسطين، الذين لا يفتاتون، والذين عن اللغو هم معرضون، وعلى الميسن والافتراء لا ينطوون. . ولا يتواطؤون. .

وسلام على الصادقين. . . ».

ونقف عند هذا الحد من الشموخ الفكري في الإنصاف، الذي يبدو في كل ما خطّه عن الرسول الكريم والرسالة العظيمة قلم الدكتور نظمي لوقا، ليكون وساماً على صدره بين أصحاب الرأي وحَمَلَةِ الأقلام العربية العفنة. ولو تابعنا خطاه في كتبه التي تلي تباعاً، لصار بحثنا متخصّصاً ذا أنماط عديدة من أساليب الدفاع وبراهين الإقناع، ولكنا نحب أن نقتصر على تلك النماذج التي سقناها عنواناً على عدالة المنصفين ونزاهة الباحثين.

أما أسلوب الكاتب القبطي والأديب المصري؛ فمن الإجحاف ألاَّ يضعه الناقدون قمة بين أساليب الكتّاب والمفكرين، ومستوى يجعله طليعة تتقدّم ثمرات الأقلام على تباين مدارسها واختلاف فترات عطائها في العصر الحديث.

إن المتابع لما يكتبه الدكتور نظمي لوقا يلمس رشاقة الأسلوب، وإشراقة الديباجة، وبساطة العرض، وعذوبة الجرس الموسيقي، وعمق التفكير؛ مما يؤكّد تأثّر الكاتب بالقرآن الكريم تلاوة ودراسة واطّلاعاً، الأمر الذي يميّزه عن الكثيرين ممن كتبوا عن الإسلام، حتى بين بعض المنتمين للإسلام والمسلمين.

أميل الغوري
العربي الفلسطيني الذي التزم خط الإسلام سياسةً وتحريرًا

لم أطّلع على كثرة ما قرأت في هذا المجال على رأي لمثقف عربي (نصراني) من بلاد الشام أكثر وضوحاً وأشد جرأة وأصدق حسّاً من آراء الأستاذ أميل الغوري، التي يعري بها التبشير الأجنبي الوافد على ديار العربية والإسلام، ويفضح بها أساليبه، ويدعو إلى طرد رموزه وإرسالياته، لأنها كما يرى في معظم ما كتب وخطب وألّف تعمل على خدمة الصهيونية والاستعمار وتدور في فلكه وتأتمر بأمره.

والذي يعرف الأستاذ الغوري عن قرب يدرك إلى أي مدى يتمتّع الرجل بانتماء صادق لبلده، وثقافة سياسية سوية، ينبذ فيها كل من لا يرتضي الإسلام منهجاً أساسياً ووسيلةَ تحريرٍ للديار وأسلوبَ جهادٍ يحرر البلاد والعباد من ربقة الاستعمار[1].

وعلى الرغم من اختلاف الناس بين معجب بفكر الرجل ورافض له، فقد تعرَّض إلى هجوم أحسب أنه لا يخلو من التحامل والغرض، لكن مجمل القول يؤكد أن الرجل كان منصفاً عفّاً فيما قال عن الإسلام والمسلمين، وكان ذا رغبة جامحة وتوجّه واضح أن يكون له علاقة طيبة وصلة وثقى بالخط الإسلامي العام، الذي يدعو إلى تحرير الديار، مبدياً

---

(١) رسالة (صيحة رائدة على دروب التحرير) لأميل الغوري، من منشورات المؤتمر الإسلامي العام بعمان، وهي أصول محاضرة ألقاها المؤلف في ١٠/ ٤/ ١٩٦٩م.

للقارئ من حصيف الرأي وعميق التجربة، ما يجعل المرء مرتاحاً لما يقول معجباً بما يكتب.

ولعلّ لعلاقة الرجل بالشيخ المجاهد الحاج أمين الحسيني وانخراطه معه في العمل الوطني، ولصلته الحميمة به؛ ما ترك في نفسه الأثر الحميد عن الإسلام والمسلمين. ويدعم هذا التوجّه ويوطّد معانيه؛ ما لقيه الرجل من تكريم في أوساط العمل الفلسطيني العام، حيث «رفض العمل في أجهزة حكومة الانتداب البريطاني، وانخرط في العمل الوطني الفلسطيني منذ تخرّجه، ومارس الصحافة باللغتين العربية والإنجليزية، إلى أن انتُخب عام ١٩٣٣ عضواً في اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني السابع، مما أدى لاعتقاله من قِبل السلطات الإنجليزية بفلسطين».

ولقد كان للدور الذي قام به ـ وهو وزير للشؤون الاجتماعية والعمل في الحكومة الأردنية عام ١٩٦٩م ـ أثر كبير يُذكر له بالخير في أوساط المسلمين وكل المحبين لأوطانهم وبني قومهم، حين كشف ألاعيب التبشير النصراني الغربي الذي يغزو البلاد العربية، والأردن في طليعتها ـ وبيّن نواياه وألقى الضوء على دوره الخطير في دعم الصهيونية، وتأييد مخططاتها، وله في ذلك رسالة مطبوعة هامة بعنوان: (دور التبشير في خدمة الاستعمار والصهيونية)، ولسوف ننقل منها نصوصاً هامة في دراستنا هذه تبيّن العلاقة الوثقى بين الأخطبوطين: الاستعمار والصهيونية وتكشف ألاعيبهما. وقد كان لترجمة الأستاذ الغوري وثقافته العربية الأصيلة الدور الهام في هذا الميدان الفكري السياسي الخطير.

يقول الأستاذ الغوري ـ تحت عنوان (المهمة الحقيقية لبعثات التبشير) ـ:

«يتناول حديثنا في هذه الدراسة المقتضبة، موضوع الإرساليات

الموجودة في بلادنا والقائمة في عقر دارنا؛ وهو موضوع غاية في الخطورة، يحفزنا إلى بحثه وعرضه يقيننا بأن بعض هذه المؤسسات تُلحق بوطننا وسلامته ضرراً كبيراً، وتُنزل بمواطنيه ـ مسلمين ومسيحيين ـ أذىً عظيماً».

ونظراً لأن المؤسسات المعنية تتدثر بثوب (النصرانية) وتخفي خلفه حقيقة مقاصدها وأهدافها، فإننا نتوقع أن (يتطوّع) أصحاب الأغراض وذوو الأهواء إلى استغلال هذه الدراسة المجرّدة لمحاولة إثارة الخلاف وإشاعة الفرقة بين أبناء هذا الوطن الواحد، والترويج لأسباب الفساد والشقاق في بعض الأوساط.

وإننا لعلى ثقة بأن جميع المواطنين الصادقين ـ على مختلف طوائفهم، وتعدد اتجاهاتهم ومشاربهم ـ يقدّرون خطورة وجود بعض هذه المؤسسات في محيطنا، وما ينجم عنه من عوامل وعناصر تسيء إلى سلامة قضيتنا في صميمها، ولذلك فإنهم لن يسمحوا للمصطادين في الماء العكر، والمنطوية نفوسهم على الدس والإفساد، بأن تنطلي أحابيلهم وأضاليلهم على أبناء شعبنا».

ويقول الأستاذ الغوري تحت عنوان (طلائع الاستعمار):

«ما انفكّ أهل الغرب، منذ قهَرَهم العرب والمسلمون في العصور الوسطى، وطهّروا ديارنا من احتلالهم واستعمارهم؛ ما انفكوا يتطلّعون إلى استعادة سيطرتهم على منطقة الشرق الأدنى للتسلّط على رقاب أهلها، واستغلال ثرواتها والتحكم في مراكزها الاستراتيجية والعسكرية وطرق مواصلاتها، ومحق عقائدها ودَرْس تراثها...

فعلى أثر تردّي أوضاع الدولة العثمانية وانحدارها نحو الانهيار ودرك الزوال، سواء بنتيجة عوامل داخلية أو بضغط التدخلات

والمؤامرات الأجنبية، رأى الغرب الاستعماري الذي تحمل بريطانيا لواءه؛ أن الفرصة غدت سانحة لتحقيق مطامعه وبلوغ أهدافه المعروفة. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت عندئذ من برعم طفولتها الدولية، وأخذت تنمو وتزدهر كدولة غربية استعمارية، فانضمّت إلى المخيم الاستعماري الغربي عامة والبريطاني خاصة.

وبدأ الغرب غزواته للمشرق العربي أو بالأحرى أخذ يمهّد لهذا الغزو بالتسلُّل إلى أقطاره وأقاليمه تحت مختلف الأسماء والمسميات.. فشرع يُوفِد طلائعه من الرسل والدعاة إلى بلادنا العربية، بعضهم تحت ستار بعثات تجارية واقتصادية ودراسية، وبعضهم الآخر باسم وفود علمية وثقافية، ثم ركّز الغرب جهوده بعد ذلك على غمر بلادنا وإتخامها بإرساليات وجمعيات ولجان، للقيام بالدعاية للدول الغربية وتحبيب الشعب بها وإهاجة خواطره ضد السلطات العثمانية، وإثارة الفرقة وإشاعة الاختلاف بين الطوائف والجماعات التي كانت تتألف منها الدولة العثمانية.

ولكن الدول الغربية حرصت على التستّر على مخططات هذه الإرساليات وأهدافها الحقيقية، فقدّمتها للبلاد وشعوبها كمؤسسات خيرية إنسانية، همّها إنشاء المعاهد العلمية الثقافية، والمستشفيات والمصحّات... بحجة المساهمة في تنظيم أبناء الشعب ورفع مستواهم المعيشي والصحي والعلمي... إلخ.

وكانت هذه الإرساليات في حقيقتها وطبيعة إنشائها منظمات سياسية (سرية) مرتبطة مباشرة بحكوماتها ودوائر حكوماتها، مهمتها الرئيسة تهيئة الأجواء المناسبة لدولها، لتغزو البلاد سياسياً وعسكرياً ولاحتلالها؛ فقصدت البلاد العربية المشرقية منها والمغربية على السواء

بعدد لا يحصى من الإرساليات البريطانية والأمريكية والروسية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والألمانية والنمساوية وغيرها.

واتفق عدد من الدول الاستعمارية فيما بينها على اقتسام مجال العمل ومناطقه في البلاد العربية، فكان الشمال الإفريقي مجالاً رئيسياً للدراسات والبعثات الفرنسية والإيطالية والإسبانية، والمشرق العربي مجالاً أساسياً لسائر الإرساليات والبعثات الأمريكية والبريطانية والألمانية والروسية، علماً بأن بعض الأقاليم العربية ـ لبنان مثلاً ـ جعلت مجالاً لجميع الإرساليات والبعثات.

ولما استقرّ الأمر لهذه البعثات والإرساليات واتخذت لنفسها صفة الديمومة، استطاعت بفضل التسامح الإسلامي من ناحية، وانعدام الوعي بين العرب من ناحية أخرى؛ إنشاء المعاهد والمستشفيات والمياتم ومؤسسات صناعية وزراعية.. ثم ظهرت الإرساليات والبعثات الغربية على حقيقتها، وراحت تعمل على المكشوف.. وأسفرت في الوقت نفسه عن مهمة أخرى من المهام الرئيسية التي أُنيطت بها. وهي متستّرة بالتبشير الديني والطائفي.

وعلى الرغم من انكشاف هذه الحقائق للعرب فإنهم لم يستطيعوا مقاومتها ومناهضتها لعدة عوامل واعتبارات، منها: الحماية الدولية، التي كانت تتمتع بها هذه البعثات والإرساليات، وضعف السلطة العثمانية وتخاذلها، ومنها اتساع نفوذ هذه الإرساليات والبعثات ورسوخ أقدامها في بعض الأوساط الشعبية، وإن كانت محدودة، وكانت المؤسسات المذكورة قد استطاعت بفضل ما حذقته من أعمال التبشير والدعاية وما أنفقته من وسائل الإغراء والتشويق؛ استطاعت أن تجد لها أنصاراً وأتباعاً، وما انفكّوا يقفون إلى جانبها ويُعْرِبون عن تأييدهم لها وترحيبهم بجهودها ونشاطها...».

ويستمر الأستاذ الغوري تحت عنوان (الدين والطائفية) فيقول:

«وتنتمي البعثات والإرساليات الآنف ذكرها إلى مختلف الكنائس والطوائف المسيحية الرئيسية في الغرب، فكانت الإيطالية والفرنسية والنمساوية والإسبانية: كاثوليكية، والبريطانية والأمريكية والألمانية: بروتستانتية، والروسية: أرثوذكسية؛ وكانت المؤسسات الفرنسية والبريطانية والأمريكية أقوى هذه البعثات والإرساليات وأكثرها نشاطاً وأشدها اندفاعاً في تحقيق مخططاتها السياسية والدعائية والتبشيرية...».

ثم يمضي الأستاذ الغوري في دراسته وبحثه حول دور تلك الإرساليات التبشيرية الاستعمارية، التي تتدثر حيناً باسم الإنسانية، وتارة باسم العلم، وثالثة باسم المحافظة على الحضارة والعناية بالآثار، ورابعة باسم الإخاء بين الشعوب عبر رياض الأطفال والمدارس والجامعات والمستشفيات ومراكز البحث ومعاهد اللغات ومدارس الفن وغير ذلك؛ بحيث لا تترك مرفقاً من مرافق الحياة ولا مجالاً من مجالاتها إلا وتدسّ أنفها فيه من أدنى مستويات الحياة اليومية للفرد إلى أعلى مستويات السياسة للدولة، وكثير من أساطين الأمة ورجالات الفكر فيها ساكتٌ عنها انسجاماً مع أهدافها أو تحقيقاً لمنافع شخصية زائلة أو اتقاءً لشرها إن حسنت النوايا.

ويعرض الأستاذ الغوري لبعض الطوائف التي يرى أنها دخيلة على النصرانية، وأنها جزء من مخطط أجنبي هادف يغزو بلادنا، فيذكر من تلك الطوائف: المعمدانية، والسبتية، وشهود يهوه، وكنيسة الله... وغيرها؛ ويكشف عن العلاقة التاريخية والعقائدية بين بعض تلك الطوائف والصهيونية، مما يُذكَر عليه بخير ويستحق على جرأته فيه ثناء المنصفين على المنصفين.

كان الرجل على وعي عميق بنوايا الإرساليات الأجنبية التي ادّعت الحرص على دين المسيح في أرض ولد عليها المسيح وعاش، وراحت تبثّ الفرقة بين النصارى والعرب والمسلمين الذين يتلون كتاب ربهم صباح مساء، وهو يؤكد لهم أخوة الأنبياء في قوله تعالى:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي قوله جلّت قدرته:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي قوله سبحانه:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

ويبيّن جلّ وعلا مكانة المسيح عليه السلام لدى ربه فيقول:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ويواصل الأستاذ أميل الغوري كشفه عن خطط المبشّرين والدعوة إلى منهج تحرير فلسطين؛ بالإسلام وذروة سنامه الجهاد، فيقول في مقال نشره في العدد ٣٤٤٥ من صحيفة الدستور الصادرة بتاريخ ٢/ ٣/ ١٩٧٧،

حيث وضع عنواناً لمقاله: (العودة إلى الدين الإسلامي شرط أساسي لتحرير فلسطين)، ثم يستأنف القول:

«إن ذكرى مولد الرسول الأمين تحتّم علينا أن نسأل، بكل صراحة وإخلاص: أين العرب اليوم من رسالة محمد، بل أين المسلمون منها، ولا نجد لهذا السؤال غير جواب فيه ألم عميق وحزن شديد؛ إن العرب اليوم بعيدون عن رسالة محمد الخالدة ودعوته السرمدية، ومفرّطون في روحها وتعاليمها وأهدافها.

إن التاريخ الصحيح يشهد بأن أمة العرب تبوّأت، بعد مولد الرسول وظهور الإسلام، ولقرون عديدة؛ مركز الصدارة في العالم ومنصب القيادة في الأرض، وفتحت الأمصار والأقطار، ودانت لها الأمم والشعوب، ذلك أن العرب كانوا يصونون يومئذٍ كرامتهم، ويتحلّون بالأخلاق الحميدة، ويتمسكون بالدين ويلتزمون تعاليمه ومبادئه، ويستوصون وصاياه، ويتصرفون في جميع شؤون حياتهم ومسيرتهم كما أراد لهم الرسول الكريم أن يتصرفوا. . وبذلك استطاعوا أن يغزوا العالم وأن يفتحوا دياره وإدخالها في حظيرة العروبة والإسلام.

أما اليوم، فإن العرب، الذين يتجاوز عددهم المئة مليون نسمة[1]، فإنهم غدوا في ذلّ مقيم، يلفّهم عار عظيم، حيث هانت الأمة وذلت، وفقدت كرامتها وعزّتها، واستكانت للظلم والعدوان، وارتضت بأن تنزل بها الهزائم البشعة متتابعة، وأكبر الكوارث متلاحقة.

ويعود السبب الجوهري والأساسي في حدوث هذا كله إلى حقيقة أليمة، هي أن العرب، إلاّ مَن عصم الله منهم، تخلّوا عن الأخلاق الحميدة،

---

(١) تعداد العرب في إحصائية ١٩٨٩هو ٢١٢مليون، والزيادة الطبيعية في السكان العرب (٣٠ في الألف) سنوياً، فيصبح تعدادهم حالياً تقريباً: ٢٦٠مليون ونيّف.

ونأوا بأنفسهم بعيداً عن الدين ورسالة محمد، وتناسوا دعوة التأهب والإعداد، وتقاعسوا عن الجهاد، وتغافلوا عن واجب الاعتماد على القوة، وسبيل العزة والمجد».

ثم أكد الرجل في محاضرته أن:

«الأمة العربية بعامة مهددة اليوم بأخطار عظيمة، ومحاطة بمؤامرات خبيثة تنذرها بشرٍّ مستطير وبأسوأ مصير».

فقضية العرب المصيرية الأولى قضية فلسطين، معروضة اليوم في سوق المساومات ومطروحة في ميدان المزاودات، لغرض تصفيتها، والتعفية على آثار الشعب العربي الفلسطيني؛ وإن الأعداء، أعداء العروبة والإسلام على اختلاف نحلهم وتعدد فئاتهم ينشطون لنسخ هذه القضية من أذهان العرب والمسلمين ويعملون على حملهم على الاعتراف بالدولة اليهودية الدخيلة الباغية، وفرض هذا الكيان الديني والعنصري على الأمة العربية والإسلامية.

وليس من شك على الإطلاق بأن القبول بما يرسم الأعداء من مخططات ويصدرونه من قرارات، ويتخذونه من إجراءات بشأن فلسطين وشعبها، هو خيانة عظمى للعرب وخروج على القومية والإسلام، فعلى العرب والمسلمين إحباط هذه المؤامرة الغادرة، والمبيّتة، وتحرير فلسطين، وإنقاذ مقدّساتها، وسبيلهم إلى بلوغ هذا الهدف العودة إلى الدين والصراط المستقيم، في حين أن السكوت عن هذه المؤامرة، فضلاً عن التواطؤ على تحقيقها؛ هو الخيانة بعينها، وليذكر العرب والمسلمون، وهم يُحْيُون ذكرى مولد الرسول؛ قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقوله تعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

صدق الله العظيم

ويقول الأستاذ الغوري ـ من مقال طويل استغرق صفحة كاملة من صحيفة الدستور نفسها في عددها الصادر بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٨١؛ وهو مقال لا ينشره باسمه إلا مَن يعتز بهذا الدين رسالةً وحضارةً ووسيلة فعّالة للتوحيد لأمة التوحيد، حيث يجمع صفها ويوحّد كلمتها ويُعلي راية الحق والقوة والحرية على الوطن العربي أجمع وديار الإسلام وربوع العالمين:

ولمناسبة ذكرى الهجرة النبوية الشريفة، نود أن نؤكّد من جديد، أننا نعتزّ أكبر الاعتزاز بالرسول العربي، سيد العرب قاطبة، ونفاخر بمبادئ رسالته الإنسانية العظمى.

إن نصارى العرب، المتمسكين بدينهم، وبتعاليمه، ومبادئه، والملتزمين وصاياه ومبادئه، يحرصون على صون الإسلام، ويودّون أن يبقى سليماً، وأن يكون قوياً عزيزاً، موفور الكرامة، ومهاب الجانب.

فالإسلام هو الإطار الحضاري الأمين الذي يعيش نصارى العرب ضمن نطاقه، وهو بيئتنا ومجتمعنا.. ومَن الذي لا يريد أن يكون مجتمعه وطيد الأركان ورفيع البنيان وعظيم الكيان؟

إن الغرب (المسيحي) نفسه ينظر إلى نصارى العرب نظرته إلى المسلمين.. ويعتبرهم فريقاً منهم!!.

ونذكر بكل اعتزاز، واغتباط قوله تعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

والواقع أن رسالة الإسلام جعلت العرب أمة تصلح للحياة، فقد انتشلتهم من حياة الجاهلية وأجوائها، وأنقذتهم من عبادة الأوثان، واقتراف الآثام، وأرست حجر الزاوية الأساسي لوجودهم وكيانهم، وأحيت لغتهم وصانتها عبر القرون والأجيال.

والحقيقة أنّ من أبلغ ما تركته رسالة محمد العظيمة، وتعاليمه السامية، من أثر وتوجيه في محيط العرب، أنها فجّرت شعورهم الصحيح بالقومية العربية، وأوقدت في نفوسهم جذوة الروح الوطنية الصادقة، وحفزتهم إلى التمرد والعصيان، على الظلم والعدوان، والجبروت والطغيان، ومقاومة الغدر والإجرام وعبادة الإنسان!

إن روح رسالة الإسلام جعلت من العرب ناراً لاهبة أحرقت الاستعمار الأجنبي، وقضت على حكمه البغيض يومئذ لعدد من الأقاليم العربية، كما أن هذه الرسالة الكريمة أدت إلى تحرير جميع العرب من السيطرة والتسلط والاستغلال، الذي كانوا يتعرّضون باستمرار لمآسيه ومظالمه، وأعتقتهم من تحكّم البغاة الدخلاء في رقابهم.

كان العرب قبل ظهور الإسلام، كتلة من البشر تعيش المذلة والمهانة على هامش التاريخ.. فصقلتهم رسالة محمد بن عبد الله، وجعلت منهم أمة حية، وأحالتهم عبر أعوام معدودة، قوة جارفة كاسحة، لُحمتها الإيمان واليقين، وسداها العزم والتصميم؛ حملت سيف الانطلاق نحو الحرية؛ فأعتقت الشعوب، ورفعت لواء محمد عالياً خفّاقاً، ونشرت كلمة الله في سائر أنحاء المعمورة.

وقد عزّت العرب بالإسلام، وعزّ الإسلام بالعرب، فحققوا للرسالة المحمدية أهدافها، وأعلوا كلمتها، فقامت أمة قال الله فيها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إن الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب كانت من حيث أهدافها ونتائجها، سبيلاً قوياً فعالاً لبعث القومية العربية، وانتشار رسالة الإسلام وكلمة الحق.. وإن ذكرى هذه الهجرة الكريمة، التي نحتفل بها اليوم، تحتم علينا أن نسأل بكل صدق وصراحة وإخلاص: أين العرب اليوم من رسالة سيدهم محمد؟ بل أين المسلمون منها؟ والجواب على هذا السؤال محزن وأليم.. ذلك أن العرب اليوم بعيدون عن الرسالة المحمدية العظيمة الخالدة، وبعيدون عن روحها وتعاليمها وأهدافها.

تبوّأت أمة العرب، بعد ظهور الإسلام ووقوع الهجرة النبوية الشريفة، ولقرون عديدة؛ مركز الصدارة في العالم، ومنصب القيادة في الأرض، وفتحت الأمصار والأقطار، ودانت لها الأمم والشعوب؛ ويعود الفضل الأول في حدوث هذا كله إلى واقع رئيسي وحقيقة أساسية، هي أن العرب كانوا يومئذٍ يصونون كرامتهم، ويتحلّون بالأخلاق الحميدة، ويتمسّكون بالدين ويلتزمون تعاليمه، ويستوحون روحه ومبادئه وتواصيه، ويتصرفون كما أراد لهم الرسول العربي أن يتصرّفوا، وأن يسلكوا في جميع مجالات الحياة ونواحيها.

سؤال يتطلّب جواباً:

إن سؤالاً ضخماً يفرض اليوم نفسه على العرب، ويتطلّب منهم جواباً شافياً، هذا السؤال هو:

كيف ننقذ فلسطين، وما هو السبيل الأمثل الذي يؤدي إلى بلوغ هدف التحرير..؟

لقد وُضعت مخططات عديدة، وطُرحت مشاريع كثيرة، وعُرضت مقترحات وفيرة، على مختلف المستويات العربية من رسمية وشعبية لإنقاذ فلسطين؛ لكل منها مزايا ومحاسن، ولكنها لم توضع إطلاقاً موضع التنفيذ، الأمر الذي أثار قلق الأمة، وألقى بها في هوة سحيقة من البلبلة والفوضى والتطيّر واليأس، وتُرك السؤال الضخم الآنف الذكر دونما جواب؛ ولا أريد في هذا المجال البحث فيما طُرح من مشاريع وعُرض من مخططات وقُدِّم من مقترحات لتحرير الوطن المغتصب أو التعليق عليها، ولكني أودّ أن أتحدث إليكم وإلى الأمة العربية جمعاء بكل صدق وصراحة وتجرّد؛ عن رأيي بشأن السبيل الأمثل الذي أؤمن بأن اتّباعه يعيد إلينا ديارنا ومقدساتنا.

إن هذا الرأي، وقد أصبح لدي عقيدة توصّلتُ إليه عن خبرة طويلة بدقائق قضية فلسطين ومكانتها، وتمحيص دقيق لأحداثها الخطيرة، كما توصّلتُ إليه على ضوء التجارب التي مرّت بها قضية فلسطين، والنتائج المحزنة والمؤسفة التي أسفرت عنها أدوار السياسة العربية الرسمية في معالجتها لقضية فلسطين وعملية تحريرها.

هذا الرأي الذي مازلت أدعو إليه في الصحف والمجلّات وأنادي به في شتى الظروف ومختلف المناسبات، هو أن الطريق المجدي الذي يجدر بنا اتّباعه لتحرير فلسطين بأسرها؛ هو أن نجعل من قضيتها (قضية إسلامية) عالمية بشكل صحيح، يتولّى أمرها المسلمون قاطبة، وأن يكون الجهاد المقدّس الذي أَمَرَنَا به الله السبيل لإنقاذ فلسطين؛ جهاد إسلامي صادق يخوض غماره المشرّف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها.

إن الإسلام والمسلمين هم الذين يستطيعون ـ إذا ما عزموا وعملوا وتوكّلوا ـ تحرير فلسطين واسترجاعها أماكنها المقدّسة من مسيحية وإسلامية من العدو.

يشرفني أن أطرح عليكم هذا الرأي الذي قد يستغرب بعض الناس أن أنادي به أنا العربي الفلسطيني الذي وُلد نصرانياً، والذي يتمسّك بدينه ويتقيّد بتعاليمه ومبادئه، ولا يخامرني أدنى شكّ في أنّ ذوي الأهواء والأغراض والتبعية والعمالة؛ لن يكفّوا عن التنديد بهذا الرأي، ولن يرعووا عن كيل الاتهامات وتوجيه الانتقادات لصاحبه.. ولكنهم مهما فعلوا فإنهم لن يستطيعوا أن يؤثّروا على جوهر الفكرة وسلامة الدعوة ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

إن صدور مثل هذه الدعوة عنّي يجب أن لا يثير أي استغراب، إذ ليس له أي مبرّر أو مسوّغ، وذلك لعدة ظروف واعتبارات؛ فنحن نصارى فلسطين، بل نصارى العرب طراً؛ نريد تحرير وطننا وإنقاذ مقدساتنا بكل وسيلة مستطاعة، ونحن النصارى العرب الذين وصفنا الله في كتابه الكريم أننا أقرب الناس مودة للذين آمنوا؛ نرحب بجهاد إسلامي مقدس صحيح لإنقاذ فلسطين ولا نخشاه، وإننا نعتبر أنفسنا والمسلمين وإن اختلف بنا الدين والسنن: مجموعة منسجمة متناسقة، وفريقاً اجتماعياً متجانساً، بل أمة واحدة.

إن الغرب المسيحي نفسه ينظر إلينا بمثل هذه النظرة، ويعتبرنا نحن النصارى العرب فريقاً في المجموعة الإسلامية، وهذا الغرب لا يهمه من أمر نصارى الشرق العربي ومصالحهم وكيانهم ودينهم؛ إلاّ بقدر ما يستطيع تسخيرهم واستغلالهم والاستفادة من وجودهم لخدمة أغراضه وتحقيق مصالحه.

والبيّنات على هذه الحقيقة كثيرة والشواهد عديدة؛ فعندما اجتاح أهل الغرب الأوروبي وطننا، واتّخذوا الدين اسماً لغزواتهم، والصليبية شعاراً لتجمّعهم ـ وكانوا كاذبين باهتين فيما زعموا ـ واحتلوا بيت المقدس؛ فإنهم ذبحوا النصارى العرب فيه كما ذبحوا المسلمين، وشرّدوا من بقي منهم حياً كما شرّدوا المسلمين، واستولوا على الأماكن المقدسة المسيحية كما استولوا على الأماكن الإسلامية المقدسة. ولم يستطع نصارى بيت المقدس العرب أن يعودوا إلى ديارهم، حيث مازال الاحتلال الأجنبي قائماً، ولكنهم عادوا إلى المدينة المقدسة واستعادوا حقوقهم ومقدساتهم فيها، بعد أن استردّها المسلمون وحرّروها.

بل ما لنا والرجوع إلى التاريخ القديم، ولدينا اليوم أحدث دليل قاطع، وأصدق برهان ساطع على أن نصارى العرب والمسلمين سواسية في نظر الغرب والاستعمار؛ فقد غزا اليهود بلادنا بحماية حراب بريطانيا المسيحية، ثم برعاية الولايات المتحدة الأمريكية المسيحية أيضاً، ورضاء الهيئة الدولية المتآمرة.

فلما احتل اليهود فلسطين رقعةً إثر رقعة، وشلواً بعد شلو، فإنهم أمعنوا في اقتراف جرائمهم الوحشية وفظائعهم الهمجية ضد النصارى العرب والمسلمين على السواء، ودنّسوا الأماكن المقدّسة المسيحية واعتدوا عليها، كما دنّسوا الأماكن المقدّسة الإسلامية واستولوا عليها، ولم يرتفع صوت غربي مسيحي واحد دفاعاً عن نصارى العرب، في حين كان أهل الغرب يتسابقون إلى الدفاع عن النصارى والأرمن والبلغار والصرب واليونان وغيرهم من شعوب الدولة العثمانية، بحجة وقوعهم تحت اضطهادها، وهو اضطهاد ـ إن ثبتت حقيقتة ـ يُعتبر نعيماً بالنسبة لجحيم الاضطهاد اليهودي الذي حلّ بنصارى العرب وينزل بهم يومياً.

ومن الحق والواجب أن نذكر أيضاً في هذه المناسبة أن المسلمين ـ من عرب وأتراك وشراكسة وأكراد وغيرهم ـ صانوا مقدساتنا المسيحية العظيمة في فلسطين مدة ثلاثة عشر قرناً، وحافظوا على سلامتها وضمنوا حقوقنا فيها، ووفّروا حرية العبادة فيها للمسيحيين كافة. أما الغرب المسيحي الذي استولى على وطننا عام ١٩١٨، فإنه لم يصن تراثه ولم يحترم قدسيته، بل فرّط به وبالمقدّسات المسيحية الخالدة، وسلّمها والأرض إلى أعداء النصرانية خلال برهة من الزمن لا تتجاوز الخمسين عاماً.

دعونا نتخذ من التاريخ عبرة، ومن أحداثه عظة، ومن بعض التطوّرات الحالية حافزاً، فقد تعرّضت فلسطين خلال تاريخها الطويل لسلسلة ملتحمة الحلقات من الغزوات الأجنبية الاستعمارية، احتلت الديار وحاربت العروبة والإسلام، مستهدفة القضاء عليهما وتقويض كيانهما، وكان من أشد هذه الغزوات وأبشعها ما سمي إفكاً وبهتاناً بالحملات الصليبية في القرون الوسطى، واحتلّ هؤلاء الغزاة فلسطين، وأنشؤوا على أنقاض أهلها النصارى والمسلمين ـ مملكة القدس اللاتينية.

وقاتل العرب أولئك الغزاة الأجانب وقاوموا احتلالهم، ولكنهم لم يتمكنوا من التغلب عليهم واستعادة ديارهم ومقدّساتهم منهم، وذلك لعدة اعتبارات وعوامل تجعلنا نردد القول «ما أشبه الليلة بالبارحة»، واستنجد العرب بالمسلمين وناداهم المسجد الأقصى المبارك، ومهد المسيح المقدس، فلبّوا النداء، واستجابوا لدعوة الأرض المقدسة، واعتبروا قضيتها قضية إسلامية أساسية، وهبّوا لإنقاذ فلسطين ومقدساتها، وحاربوا الأعداء في جهاد صحيح صادق استمرّ عشرات الأعوام، شاركهم فيه أبطال عظام من المسلمين من غير العرب من مثل الشهيد زنكي، ومن بعده

ولده عماد الدين، فنور الدين محمود، فيوسف صلاح الدين الأيوبي. . . وغيرهم. وكُتب النصر للجهاد المقدّس، فطهّر المسلمون فلسطين من الغزاة الأجانب، ودمّروا الكيان السياسي العنصري الديني الذي أقاموه فيها، واستعادوا لأهله العرب مقدساتهم المسيحية والإسلامية على السواء.

فلماذا لا يحدث اليوم مثل هذا الذي حدث في القرون الوسطى، لا سيما أن الغزوة اليهودية لفلسطين لا تختلف إطلاقاً عن الغزوة الصليبية لها، وأن الدولة اليهودية الدخيلة الباغية الجاثمة اليوم على صدور العرب والمسلمين في فلسطين المحتلة لا تختلف أبداً عن مملكة القدس اللاتينية الآنف ذكرها؟.

والمسلمون على اختلاف شعوبهم، هم الذين ردّوا الغزوة التترية لفلسطين على أعقابها، وهم الذين دمّروها في أرض فلسطين نفسها.

إن اليهود كانوا يعتزمون الاستيلاء على فلسطين بتأييد بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتحويلها إلى دولة يهودية فور إعلان اليهودية العالمية قيام الحركة الصهيونية في القرن الماضي، ولو لم يتّحد المسلمون حينئذٍ بشخص السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية لإحباط المخطط اليهودي؛ لحققه اليهود قبل خمس وسبعين سنة.

إن من حق المسلمين علينا نحن العرب أن ندعوهم إلى الجهاد المقدس لتحرير فلسطين، وأن نقنعهم قولاً وعملاً ومسلكاً، بأننا نريد بكل صدق وإخلاص أن تكون قضية فلسطين قضية العالم الإسلامي الأولى، وإننا سنخلص لها كل الإخلاص ونجاهد في سبيل فلسطين أصدق الجهاد. كما أن من حق الإسلام على جميع المسلمين أن يدركوا أن ما أصاب فلسطين وأهلها ومقدّساتها سيصيب المسلمين وسائر

مقدساتهم، وأن يؤمنوا بأن الغزوة اليهودية الاستعمارية لفلسطين تنطوي في حقيقتها ودوافعها وجوهرها وطبيعتها على حرب دينية تشنّها اليهودية العالمية وأنصارها وحماتها ضد الإسلام والمسلمين، وهي حرب أكثر خطورة وأبعد مدى من الحرب الدينية التي شنّها الغرب عليهم في القرون الوسطى، وأن لدينا أدلة عديدة وبراهين كثيرة على أن هذه الحرب الدينية قائمة اليوم ضد الإسلام والمسلمين.

إن اليهود استولوا على التراث والآثار والمقدّسات الإسلامية في فلسطين، وعملوا على طمسها، واغتصبوا المساجد التي يُذكر فيها اسم الله، فدمّروا بعضها تدميراً ونسفوها نسفاً، وحوّلوا بعضها إلى كُنُسٍ يهودية، وجعلوا بعضاً آخر منها مراكز للّهو والفسق والفجور، واستباح اليهود أوقاف المسلمين ومعاهدهم ومدافنهم وزواياهم ومؤسساتهم، وهم يحاولون اليوم الاستيلاء على الحَرَم الإبراهيمي الشريف[1] في مدينة خليل الرحمان، بقصد تحويله إلى كنيس يهودي، وفي الجزء العربي استولى اليهود على مكان البراق الشريف في بيت المقدس، وهدوا عدة مساجد وأماكن إسلامية وقفية فيه، وطردوا سكانها العرب منها، فإنهم يستعدّون الآن لإعادة بناء هيكلهم القديم، هيكل سليمان الذي دمّره الرومان في سالف الأزمان على أنقاض المسجد الأقصى المبارك ومسجد الصخرة المشرفة، وقد أعلن أحبارهم وقادتهم بأنهم انتهوا من وضع الرسوم والخرائط اللازمة لإعادة بناء هيكلهم بموجبها، وأنهم في سبيلهم إلى جباية ٢٠٠ مليون دولار لتنفيذ هذا المشروع.

ويجب أن لا ينسى المسلمون أن البرنامج اليهودي الأساسي الذي يواصل الأعداء العمل لبلوغ أهدافه؛ يرمي إلى تشكيل الدولة اليهودية

---

(١) وقد تم لهم ذلك اليوم مع الأسف الشديد.

الكبرى من النيل إلى الفرات، ويكون شمال الحجاز بما فيه المدينة المنورة نفسها ضمن حدود هذه الدولة، ولقد سبق لأحد كبار كتّاب اليهود وقادتهم (بن هخت) أن نشر مقالاً في إحدى الصحف البريطانية قال فيه: «إننا نحن اليهود سوف نستطيع بعد استيلائنا على خليج العقبة وما حوله؛ أن نوجّه الضربة المميتة للإسلام والأماكن المقدسة في مكة والمدينة». وإن لساني ليعفّ عن إيراد ما تضمّنه المقال الآنف ذكره من بذيء القول بشأن الإسلام ونبيه الكريم.

أما بعد فإننا نأمل أن يُجْمِعَ العرب والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على القيام بجهاد مقدّس صادق حقيقي؛ لإنقاذ فلسطين وتحرير مسجدها الأقصى المبارك ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

* * *

قامت فئات (شهود يَهْوَهْ) والسبتيين والمستخدمين وجماعة كنيسة الله وغيرها من الفئات، بالقسم الأوفر من النشاط الآنف الذكر. وقد تعاون المبشرون ـ من قدامى وجدد ـ مع الموظفين البريطانيين التابعين لدوائر الاستخبارات ومع الدائرة السياسية للوكالة اليهودية ورجال المخابرات التابعين لها ولسائر الأحزاب اليهودية، ولعب هؤلاء مجتمعين ومتعاونين دوراً بارزاً في مقاومة الحركة الوطنية ومحاولات تمزيق صفها، فلما نشأت أزمة البراق الشريف خلال عام ١٩٢٩، نتيجة لإعلان اليهود عزمهم على الاستيلاء على هذا المكان الإسلامي المقدّس؛ انصرف المشار إليهم آنفاً من رجال الإرساليات التبشيرية الأجنبية والبدع الجديدة والعاملين في المخابرات البريطانية؛ انصرفوا يروّجون دعاية واسعة النطاق في وجهة نظر اليهود وحقوقهم المزعومة في ساحة الحرم المقدس الشريف، حيث كان يقوم هيكل سليمان الذي دمّره الرومان في سابق الأزمان.

وعندما نشبت ثورة فلسطين الكبرى في آب ١٩٣٦، وعُرفت بثورة البراق ـ انطلق هؤلاء يوجّهون اللوم إلى العرب لأنهم يقاومون إرادة الله في إعادة اليهود إلى فلسطين.. وأماكنهم المقدسة القديمة. وواصل المبشرون الأجانب وأعوانهم بثّ دعايتهم هذه بعد انتهاء الثورة، فوقعت مشاحنات ومصادمات بينهم وبين بعض الشبان العرب في القدس وصفد وبيت ساحور وشفا عمرو والرملة.. فكانت تنتهي بالقبض على الشبان العرب.. وترك المبشرين الأجانب أحراراً ينفثون سمومهم وينشرون ترّهاتهم وأباطيلهم.

خاتم النبيين في شعر المنصفين من النصارى العرب

ومن الإنصاف أن نسوق هنا نمطاً من الشعر الهادف الذي تغنّى به عدد من الشعراء النصارى في مناسبات إسلامية عديدة، مما يؤكّد أن عروبة المنصفين وانتماء العرب منهم لسيد العرب والعجم محمد ﷺ؛ هو انتماء مفاخرة وحنين ونسب يعلو على كل رابطة تربطهم بأدعياء النصرانية ونصرة المسيح في الغرب النصراني المتهوّد.

يقول الشاعر محبوب الخوري الشرتوني (١٨٨٥ ـ ١٩٣١م) اللبناني الأصل، الذي عاش في المكسيك معظم غربته، وفي الولايات المتحدة جزءاً منها؛ مخاطباً من يعجب له كيف يحب العرب وفيهم ظهر دين الإسلام وقام بينهم سيد الخلق محمد ﷺ، والشاعر نصراني الديانة:

قالوا تحبُّ العُربَ؟ قلتُ أحبُّهم ... يقضي الجوارُ عليّ والأرحامُ
قالوا: لقد بخِلوا عليك، أجبتُهم ... أهلي وإن بَخِلوا عليّ كرامُ
قالوا الديانة، قلت جيلٌ زائلٌ ... ويزولُ معه حزازةٌ وخصامُ
ومحمد بطلُ البريّة كلِّها ... هو للأعاربِ أجمعينَ إمامُ
قالوا البداوةُ، قلتُ أطهرُ عنصرٍ ... صَفَتِ النفوسُ هناكَ والأجسامُ
الأريحيةُ والشهامةُ والنَّدى ... في الأرضِ حيثُ أيانِقٌ وخيامُ
قالوا الشآم، فقلتُ رؤيةُ وجهِها ... كنزٌ، ولثمُ ترابِها إنعامُ
وطنٌ لنا ذكراهُ نفحةُ عنبرٍ ... وحديثُ عودتِنا إليهِ مُدامُ
أرضُ المَهاجر نحن في جنباتِها ... ريحٌ تسيرُ لغايةٍ وغَمامُ

وإذا تمـرُّ بقـريـةٍ عصفـورةٌ فعلـى السُّطـوحِ وقـوفُهـا إلمـامُ
نسمـاتُ واديهـا، وعـزلـةُ عُشِّهـا ومـروجُهـا، وسمـاؤهـا أحـلامُ!

* * *

وينشد الشاعر اللبناني النصراني إلياس فرحات (١٨٩٣م) قصيدته (يا رسول الله) في حفل عيد المولد النبوي بـ(سان باولو) بالبرازيل، نثبت منها الأبيات التالية التي تدلّ على ذوق ووفاء وأصالة طيبة في الشعر والطبع معاً:

غمـر الأرضَ بـأنـوارِ النبـوّه كوكبٌ لم تدرِكِ الشمسُ عُلُوّه
لـم يكـدْ يلمـعُ حتـى أصبحـتْ ترقُـبُ الـدُّنيـا ومَـن فيهـا دُنـوّه
بينمـا الكـونُ ظـلامٌ دامـسٌ فُتِحَـتْ فـي (مكـة) للنـورِ كُـوَّه
وطمـى الإسـلامُ بحـراً زاخـراً بـأواذيِّ المعـالـي والفُتـوَّه
مـن رأى الأعـرابَ فـي وثبتِهـمْ عَـرَف البحـرَ ولـم يجهـلْ طُمُـوَّه
إن فـي الإسـلامِ للعـربِ عُلَـى إن فـي الإسـلامِ للنـاسِ أُخُـوّه
فـادرسِ الإسـلامَ يـا جـاهلَـهُ تلـقَ بطـشَ اللـهِ فيـهِ وحُنـوَّه

• • •

يـا رسـولَ اللـهِ إنّـا أمـةٌ زجَّهـا التضليـلُ فـي أعمـقِ هُـوّه
ذلـكَ الجهـلُ الـذي حـاربتَـهُ لـم يـزلْ يُظهـرُ للشـرقِ عُتُـوَّه
قـلْ لأتبـاعِـكَ صلُّـوا واذرُسـوا إنمـا الـديـنُ هـدىً والعلـمُ قـوّه

* * *

أما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧م)، وهو من لبنان كذلك، فله قصيدة (يا رب) التي تفيض بالروحانية والصفاء مما عرف به

الشعر العربي الإسلامي الرصين، حيث يقول:

يـاربِّ إنّـكَ صـاحـبُ الأمـرِ ... وأنـا إليـكَ مـوكّـلٌ أمـري
مَن لي سواكَ إذا الهمومُ طمَتْ ... وتـلاعبَـت بسفينـةِ العمـرِ
مُـرها تطعـكَ! فطالما سكَنَتْ ... طـوْعـاً لأمـرِكَ لُجّـةُ البحـرِ
أكـذا أظـلُّ الـدّهـرَ مـرتطمـاً ... أنجـرّ مـن صخـرٍ إلـى صخـرِ؟
خمـسٌ مضتْ، واليـومَ سـادسـةٌ ... مـن غُـربتـي فـي إثْـرِهـا تَجري
لـم ألـقَ فـي أثنـائِهـا سنـةً ... إلاّ وأهـونُ مـا بهـا فقـري
شكـراً علـى مـا سـرّنـي، وعلـى ... مـا سـاءنـي، شكـراً علـى شكـرِ!
مـا لـي جميـلٌ أرتجـي معَـهُ ... أجـراً ولا عفـواً سـوى صبـري

* * *

أما قصيدته (عيدُ البَرِيّة) ففيضٌ من الوجدان الشفيف ودفقٌ من المشاعر الكريمة يؤكّد انتماء الشاعر الأصيل إلى عروبةٍ يعتزّ بها، وحضارة إسلامية ينتمي إليها، ولو كان يدين بالنصرانية ديناً ومعتقداً:

عيدُ البَرِيّةِ عيدُ المولدِ النبويّ ... في المشرقين له والمغربين دَوي
عيدُ النبيّ ابن عبدِ اللهِ مَن طَلَعَتْ ... شمسُ الهدايةِ من قرآنِه العُلوي
بدا من القَفْرِ نوراً للورى وهُدىً ... يا لَلتَّمدُّنِ عمّ الكونَ من بَدَوي!
يا صاحبَ السَّيفِ لم تُفلل مضاربُه ... اليـومَ يقطـرُ ذلاًّ سيفُـك الـدمـوي
يـا فـاتـحَ الأرض ميـدانـاً لقـوّتِـهِ ... صارتْ بلادُكَ ميداناً لكلِّ قوي
يـا حبّـذا عهـدُ بغـدادٍ وأنـدَلُـسٍ ... عهدٌ بروحيَ أفدي عودَهُ وذوي
مَن كان في ربيةٍ من ضخم دولتهِ ... فليتلُ ما في تواريخِ الشُّعوب رُوي
يـا قـومُ هـذا مسيحـيٌّ يـذكّـرُكُـمْ ... لا يُنهضُ الشرقَ إلا حبُّنا الأُخَوي
فـإن ذكـرتُـمْ رسـولَ اللـهِ تكـرمـةً ... فبلّغـوهُ سـلامَ الشـاعـرِ القَـرَوي!

* * *

ونقف أمام عقيدة التوحيد واضحة مشرقة نيّرة، في قصيدة الشاعر رياض المعلوف، وهو نصراني من لبنان أيضاً، ومن شعراء المهجر، حيث نراه يشير إلى دين الله ووحدانيته وحضارة الإسلام على امتداد رقعة ديار الإسلام، في قصيدته (وحّد الله)، التي يقول فيها:

وحّـد اللـهَ، فـالمـؤذّنُ وحّـدْ ... وبـذكـرِ النبـيّ فـي العيـدِ أنْشـدْ
يـا رسـولَ الأنـامِ أنـتَ وعيسـى ... خيرُ مَن يُصطفى ويُرجى ويُقصَدْ
إيـه بغـدادُ والمـآذنُ تشـدو ... ودمشـقٌ فيهـا الصـلاةُ تُـردّدْ
وفلسطيـنُ والعـراقُ ومصـرٌ ... شـرقُنـا كلُّـهُ بعيـدكَ عيّـدْ
أينمـا سـرتَ رُكّـعٌ لِصـلاةٍ ... ودعـاءٌ، كـأنّمـا الشـرقُ مسجِـدْ!
عيـدُكَ اليـومَ غِبطـةٌ وابتهـاجٌ ... لجميـعِ الأعـرابِ واللـهُ يشهَـدْ!
إيـهِ قـرآنُـكَ الكـريـمُ كتـابٌ ... رائـعٌ كلُّـه، ودُرٌّ مُنَضّـدْ
عِبَـرٌ كلُّـهُ وقـولٌ كـريـمٌ ... كلّمـا طـالَ عمـرُه يَتَجـدَّدْ
وكفـى العـربَ فخرُهُـم بانتسـابٍ ... لنبـيٌّ هـو النَّبـيُّ مُحَمَّـدْ

* * *

ومن أفضل ما قدّم بعض أدباء الأردن من أبنائه النصارى، الذين أبدعوا في هذا المجال وأجادوا، ما كانت تجود به في المناسبات الإسلامية والوطنية العديدة؛ قريحة الشاعر الأديب سليمان المشيني، الذي كان يشغل منصب مدير إذاعة عمان.

والمتتبّع للأعمال الشعرية لهذا الشاعر العربي الأردني، يلاحظ أنه ما كان يترك مناسبةً دينيةً أو وطنية أو قومية إلاّ ويحيّي فيها الرسول العظيم محمد ﷺ، ويدعو للسير على طريق الوحدة واتّباع نهجه في ذلك، كما كان يدعو للبرّ والتعاون بين المسلمين والنصارى في إطار الوطن الواحد:

يقول الشاعر المشيني في قصيدة بعنوان: (في رحاب الهدى.. عيدُ المولد النبوي):

أيّ عيدٍ خالدٍ مذْ هلَّ فجَّرْ ... أبحُرَ الرحمةِ والعالمَ عطَّرْ
أيُّ عيدٍ مذْ تبدَّى مشرقاً ... هلَّل القلبُ لذكراه وكبّرْ
إنه عيدُ النبي المصطفى ... عيدُ خيرِ الخلقِ مَن بالحقّ بَشّرْ
ومضى يهزم بالنور الدُّجى ... وانثنى يهدمُ إلحاداً ومنكَرْ
سار بالقرآن يهدي عالَماً ... سادهُ البهتانُ والطغيانُ والشرّ
فإذا بالكفرِ مهزومٌ وما ... عاد سلطانٌ لكسرى أو لقيصرْ
وإذا بالكونِ يُصغي خاشعاً ... وتُدوّي في الدُّنى (الله أكبرْ).
فسلامٌ يا شفيع الخلق ما ... لاح في آفاقنا الرحبةِ نيّرْ
كلّ ما في الأرضِ من شعرٍ ومن ... كلِمٍ يعجزُ عن مدحِكَ، يقصُر

* * *

ويقول ذلك الشاعر العربي الأردني المنصف في قصيدة عنوانها؛ (الفطر السعيد):

هل عيد الفطر في بردٍ فريدِ ... فسرى في الكونِ نفحٌ من خلودِ
عبَقَ الإيمانِ فواحَ الشّذَى ... والتقى في موكبِ العيد السعيدِ
والدُّنى حسنٌ وعطرٌ وسنىً ... ورواءٌ يتسامى عن حدودِ
وجلالٌ قدسيٌّ شاملٌ ... رائعٌ قد لفَّ أطرافَ الوجودِ
فرحَ الصائمُ في إشراقِهِ ... فرحةَ الأمْ بمولودٍ جديدِ
فرحةً للّهِ ما أعظمَها ... روتِ الأنسامُ عنها للورودِ
والثَّرى القدسيُّ أضحى طلِقاً ... رغمَ حزنٍ وجراح وقيودِ
جدّد العيدُ لهُ آمالَه ... باعثاً فيه مضاءً من حديدِ
مؤمناً أنّ الدُّجى لابدّ أنْ ... يتلاشى بمزيدٍ من صمودِ

* * *

ومن قصيدة أخرى للشاعر نفسه عنوانها: (قسم في العيد)، يقول الشاعر:

إيه عيدَ الفطرِ قد ألهمتَنا ... أملاً أفعمَ بالبِشرِ سَمانا
مذ تجلّيْتَ مع الفجرِ هفَتْ ... نحوك الأنفسُ وافترّت مُناناً
وأطلَّت ذكرياتٌ عذبةٌ ... خلَّدَت أيامَنا البيضَ الحسانا
وبدتْ أطيافُ بدرٍ فرقداً ... مشرقاً بالثُورِ يجتاحُ دُجانا
ويحيلُ الضعفَ بأساً خارقاً ... يسحقُ الظلمَ ويجتثُّ عدانا

* * *

أما عيد الأضحى الذي يُعتبَر رمزاً للتضحية في حياة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو العيدُ الذي يحتفلُ به المسلمون خلال موسم الحج من كل عام، فيقول الشاعر المشيني فيه، مشاركاً بني قومه وأبناء بلده:

أيّ لحنٍ من ترانيم السما ... أي فيضٍ من ضياءٍ قد هما
أيُّ فجرٍ حملت أبرادَه ... لنفوسِ المؤمنين البلسَما
إنَّه الأضحى تبدّى مشرقاً ... حملَ البُشرى لنا مذ قدِما
مرحباً بالعيدِ رفرافَ الثنا ... يُبرئ الجرحَ ويَشفي السَّقما
سكبتْ أنوارُه تعزيةً ... في نفوسٍ للعلى أضحت ظما
وانثنت تشحذُ من عزمِ الذي ... يحفظ العهدَ ويرعى الذِّمما
أيها العيدُ تدفّقْ أملاً ... يُلهب البأسَ ويحيي الهِمما
وأنِرْ درب الأُلى قد صابرو ... كي يسيروا للمعالي قُدُما
يكتبون المجدَ في حدّ القنا ... يصنعون الفجرَ من دفقِ الدّما
يقحمون الهولَ في ساحِ الوغى ... ويُضحّون ليَفدوا الحَرَما
فيعودُ الحقّ في عزمتِهم ... خافقَ الرايةِ في أغلى حمى

* * *

ويظهر تأثّر الشاعر العربي بأسلوب القرآن والثقافة الإسلامية النقية، التي يُفترض أن تكون ثقافةً لكلّ عربي وكلّ مسلم، فيقول من قصيدة بعنوان (رسالة إلى صديق):

نريدُ أن نكون يا أخي
شعباً له المكان في السماءْ
ألسنا خير أمة قد أُخرجَت للناس
تنهى عن المنكر والفحشاءْ
ألم نكن فيما مضى بدور علمٍ ننشرُ السناء

* * *

ومن قصيدة بعنوان (إلى الأقصى الخالد)، يقول الشاعر مظهراً اعتزازه وانتماءه إلى الأقصى مصدرَ إشعاعٍ ونورٍ للحضارة العربية الإسلامية:

لـــرحـــابِ الطُّهـــرِ تحيّتُنـــا
للمسجـــدِ تهفـــو أمتُنـــا
لحمـــاه تـــرنـــو أعينُنـــا
لـلأقصـى تـرخُـص أنفسُنـا

لـــن ننســـى أربـــع قبلتِنـــا
لـــن نسلـــو قمـــةَ عـــزّتنـــا
فـــرؤاه تعيـــشُ بمقلتِنـــا

لبيْـك فنحـن علـى العهـدِ
نفـدي بـالـروح ثـرى الخلْـدِ
ونحطِّـــمُ أثقـــال القيـــدِ
ونعلّـــي رايـــات المجـــدِ

لبيـــكَ رحـــابَ الإســـراءِ

يـــا أرضَ القـــدسِ الغـــرّاء

يـــا دنيـــا نـــورٍ وسنـــاءِ

* * *

ويعلن الشاعر العربي الأردني انتماءه لعمر وخالد وصلاح الدين، واعتزازه بمؤتة وحطين، وهو يقول:

عمر يحفزُني للنجدةِ
وشعاع خالد من مؤتة
وصلاح الدين يرعى خُطوتي
وسنا حطين يُذكي همّتي
أبشري إني لها يا أمتي!

* * *

والمسلمون.. ماذا يعتقدون، وماذا يقولون؟

هذه نماذج خيّرة هادفة من أقوال المنصفين من نصارى العرب في مختلف أقطارهم، أملاها عليهم انتماؤهم لأمتهم، ورغبتهم في وحدة الصف وجمع الكلمة وتفويت الفرصة على أبواق الطائفية أن ينفخ فيها شياطين الفرقة والتمزّق؛ عرضناها هنا بأمانة وموضوعية وإنصاف.

أما المسلمون الواعون لحقيقة التدين المدركون لعظمة إسلامهم، فماذا يمكن أن يقولوا؟ وماذا يمكن أن يعلنوا إيماناً منهم بسماحة الإسلام ووحدة الأمة؟

أليسوا هم المدركين ـ دون رياء زائف، ولا مجاملة جوفاء ـ لحقيقة المسيح العظيم عليه السلام بأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

وأنه روح من الله نفخها في مريم ليكون المسيح معجزة من معجزات رب العالمين في خلقه وبين عباده:

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٣].

وأن مريم عليها السلام أمّ المسيح هي العذراء الطاهرة البتول، التي فضّلها الله في عصرها على نساء العالمين في محكم تنزيله على قلب محمد ﷺ، حيث يقول سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وأنها كما ورد في الحديث الشريف إحدى سيدات نساء الجنة مع أن عقيدة الإيمان الصادق وحقيقة الإسلام النقي تأمرنا أن نصلي ونسلم على جميع الأنبياء والمرسلين بدءاً بآدم ومروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل، وختاماً بسيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى أنبياء الله أجمعين.

إذن لماذا يطاوع الجَهَلة أو السذّج من أبناء أمتنا المفسدين من الدخلاء، الذين ينشرون الحقد بيننا باسم المحبة الزائفة، ويصنعون الفتنة من جديد، وقد دفنها وعينا وتعاوننا على البناء والعطاء في أطباق الثرى، ليكون «المجد في الأعالي» كما يقول الإنجيل، وتكون ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما ورد في محكم تنزيله.

* * *

طائفة من الشبهات والمفتريات
في تاريخنا عبر العصور

طائفة من الشبهات والمفتريات في تاريخنا عبر العصور

المزوّرون يبحثون عن العيوب لا عن الفضائل:

ينقّب المزوّرون لتاريخ أمتنا عن المثالب ليزوّروها، وعن العيوب ليلقوا عليها الأضواء، فتبدو للعين كبيرة، ويعملون جهدهم على إخفاء الفضائل والانتقاص من المكارم والحسنات حتى تبدو صغيرة ضئيلة. وبذلك يضعون صياغة للتاريخ تُظهر الصور والملامح المشوهة التي يريدون أمام القارئ سواء كان باحثاً جامعياً أو دارساً على مقاعد الدراسة الإعدادية والثانوية من أبناء الجيل الجديد المطلّ على ماضيه من خلال ما يكتبون.

يبحث المزوّرون عن أحاديث الرسول ﷺ في آداب الطعام والشراب والتعامل مع الغذاء ليُظهروا اهتمام الرسول الكريم بالمعدة ويصوّروه الصورة البشعة التي تروق لهم.

ومن الأكاذيب التي يوردها المستشرق الفرنسي (لامانس) قوله بأن محمداً ﷺ كان أكولاً، مما دعا المستشرق الفرنسي المسلم (ألفونس إيتين دينيه) أن يردّ عليه، ويؤكد بما استشهد به من أحاديث نبوية شريفة أن الرسول الكريم «كان أزهد الناس في ملذّات الحياة، وكان يصوم أياماً من كل أسبوع، في الوقت الذي كان ينهى فيه أصحابه عن متابعة الصيام مثله».

ويُغفِل المزوّرون ما ورد في أحاديث الرسول العظيم من حثٍّ على

الاقتصاد في تناول الطعام، وعلى الإكثار من الصيام الذي يهب للجسد العافية وللنفس الشفافية والصفاء.

ويُركّز المزوّرون على تعدُّد الزوجات في حياة سيد الخلق، ليُظهروه شهوانياً مزواجاً يبحث عن المرأة ليقضي منها وطره، ويُغفِلون الأسباب التي دعت لذلك، سواء ما كان تألّفاً لقلوب أو إكراماً لزوج شهيد أو حادثاً لسنٍّ تشريعٍ مما وضّحه العلماء وأدرك سره الحكماء، وأنَّ بعض أزواجه ﷺ كنَّ في سن الشيخوخة التي لا يُرجى منها شهوة، ولا يبحث عندها رغبة في جسد، وأنه ﷺ بقي مع السيدة خديجة وحدها أكثر من خمسة وعشرين عاماً دون أن يفكّر في غيرها، وهو في أوج شبابه وذروة عنفوانه.

ويُكثِر المزوّرون من الحديث عن انتشار الإسلام بالسيف، ويُغفلون دَوْر العدل والمرحمة ودوافع البرّ وحسن المعاملة، وأنّ ذكر الإسلام والثناء عليه، وسيرة المسلمين المُثلى؛ كانت تسبقهم إلى ميادين القلوب والنفوس قبل أن تلتقي السيوف في ميدان المعركة وساحات القتال.

ويُظهر المزوّرون المفترون الخلاف بين الصحابة في الرأي أو في فتنة عابرة لا تلبث أن تنقضي، ويُخفون مواقف الإيثار والتراحم والتضحية والزهد في جاه الدنيا وعرضها الزائل.

ويركّز المضلّلون على ثراء بعض الصحابة أو مَن تبعهم ممن جاؤوا بعدهم ليُبْرِزوا الطبقية متمثلةً في ثراء البعض وفقر البعض الآخر، ولا يذكرون أن الثراء شيء والبطر والترف شيء آخر، وأن الأثرياء كانوا يتنازلون في كثير من الأحيان عن جلّ ما يملكون إعداداً لجيش أو إنقاذاً لمجتمع من ضائقة تلمّ به أو خطر يطبق عليه.

ويُظهر العابثون حبّ الصحابة لرسول الله ﷺ أنه نوع من العبادة، وينسى الضالون أن نبينا العظيم حمل لنا من عند ربه أكرم صفة يتّصف بها ويعتزّ وهي «عبده ورسوله»، وأنه كان أكثر الناس تواضعاً، وأنه نهى عن الكِبْر والعنجهية، وقد وصف نفسه بأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، ليزيل الخوف والوجل من نفس القادم عليه؛ وأنه ﷺ قد خرج من دنيا النظريات والأقوال إلى عالم التطبيق والأعمال، فكان يحلب شاته ويرتق ثوبه ويخصف نعله ويحمل حاجته، وهو يؤكّد للصحابة من حوله أن صاحب الحاجة أَوْلى بحمل حاجته.

ومما يعجبني في هذا المقام ما أورده الدكتور حسين مؤنس في دراسة نشرها في صحيفة الأهرام حول إعجاب بعضٍ المستشرقين ببني أمية، وقد خصّ بها المستشرق الفرنسي (جاستون فييت).

يقول الدكتور حسين مؤنس، وهو يشير إلى إعجاب بعض المستشرقين الفرنسيين الحاقدين بـ(بني أمية): «والفرنسيون معجبون ببني أمية، وسرّ الإعجاب أنّ جدّهم أبا سفيان كان عدو الرسول ﷺ واقرأ إذا أردت ما كتبه عميدهم (هنري لا مانس) عن معاوية ويزيد وعبد الملك وبقية بني مروان، ونحن معجبون ببني أمية كذلك، ولكن شتّان بين الإعجابين؛ فهم معجبون بهم عن طريق الحقد، ونحن معجبون بهم عن طريق الحب، يعجبنا حلم معاوية ورجولته وسياسته وتوحيده أمر المسلمين، وتعجبنا عروبة عبد الملك بن مروان وإيمانه بها، الذي خطا بمسيرة التعريب خطوات حاسمة إلى الأمام، ويعجبنا إيمان الوليد وسليمان، وما تمّ على يديهما من فتوح، وتعجبنا من بني أمية الفحولة والأصالة والشهامة والعروبة، ولكن.. ماذا يعجب الفرنسيين من بني أمية؟

يعجبهم أبو سفيان لأنه حارب الرسول ﷺ، ويعجبهم معاوية لأنه

انتزع الخلافة من علي، ويعجبهم يزيد لأنه قتل الحسين وأمر جنده بمهاجمة مكة، ويعجبهم تمثيل الحجّاج بأهل العراق»[1].

ألا يدلّ هذا على أن عمليةً انتقائية بشعة غير منصفة ولا عادلة تتم بعيدة كلّ البعد عن المنهج العلمي والأمانة في البحث الموزون والدراسة الرصينة.

تهافت التفسير المادي للتاريخ أمام أحداث السيرة:

يرى (الماديون) أن (المادة) هي أساس الحياة حركةً وسكوناً وأهدافاً ووسائل، ويؤكّدون أنه ما من حركةِ إصلاحٍ أو أسلوبِ تغييرٍ يقع في المجتمعات الإنسانية إلا ويكمن خلف ذلك أهداف مادية أو أسباب تُحرّك الإنسان نحو تطلّعات دنيوية بحتة تتعلق بالحياة ومافيها من رغبات لا يربطها بالأشواق الروحية والمُثُل رابط، ولا يشدّها إلى الروح وثاق.

ويدرج الماديّون تحت هذا (التفسير المادي للتاريخ)، وهذا الفهم لمسيرة الحياة البشرية؛ دعوات الأنبياء ورسالات الرسل، بما في ذلك البعثة المحمدية التي أكرم الله بها الخلق وأسعد الإنسانية.

وحين نطالع أحداث السيرة، نرى ما ينقض هذا الرأي، وما يهدم هذه النظرية، سواء في حياة الأفراد من الصحابة أو مسيرة الدعوة الجماعية المباركة.

تُرى أيُّ نزعةٍ مادية دفعت بالنبي ﷺ أن يصرّ على دعوته وأن يرفض العروض المغرية من قريش بأن يجمعوا له المال حتى يصبح أغناهم، وأن يزوّجوه أجمل بنات العرب، وأن يتوّجوه ملكاً على مكة وما حولها من

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي.

قبائل، فيأبى ويعلن الإصرار الذي ملأ جنبات الدنيا شموخاً وتسامياً: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»؟!.

ويلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى وليس عنده مالٌ يورِّثُه أو عقار يتمتّع به ذووه من بعده سوى سبعة دنانير أمر عائشة رضي الله عنها أن تتصدّق بها قبل أن تفيض روحه الطاهرة إلى بارئها.

وهجرته ﷺ إلى المدينة.. ماذا جنى منها مادة سوى الجهد والتعب والعيش مهدّداً بمؤامرات اليهود وحقد قريش؟!

وصهيب الرومي الذي عاش في مكة وجمع مدّخرات عمره من كدّه وعمل يده، يرغب في الهجرة واللحاق برسول الله ﷺ، فيمنعه المشركون من ذلك ويَحُولون دون تحقيق رغبته، فيعرض عليهم أن يقدّم لهم كل ما ادّخر من مال وما جمع من حطام الدنيا لقاء أن يُخلّوا بينه وبين رسول الله ﷺ، ويرضى القوم بذلك، وينطلق صهيب إلى المدينة، وقد ترك وراءه كل (مادة) ليلحق بمن يحبّ، ويسمع من النبي الكريم وهو مقبل على مجلسه ما تطمئن به نفسه ويرتاح له باله: «ربح البيع يا صهيب»!.

وعبد الرحمن بن عوف، الذي كان من أكثر الناس ثراءً في المجتمع المكّي تتحرّك في نفسه دوافع الشوق والرغبة في أن يكون إلى جانب رسول الله ﷺ في المدينة، فيترك كل ما كان يملك من مال، ويلحق بالنبي العظيم، وهو لا يحمل إلا ثوبه على جسده وقلبه المؤمن بين جنبيه، ويبدأ من جديد يعمل في حقل التجارة والمال، وهو يقول لأخيه الأنصاري الذي أراد أن يقاسمه المال والعيش: «إنما أنا رجل تاجر، فدلَّني على السوق»...

تُرى أيّ هدف مادي يدفع رجل أن يتخلّى عن ثروته ومستقر أمنه في بلده بين قومه وعشيرته ليرحل إلى بلد آخر جديد عليه، وسوق ليس له فيها ثروة مدّخرة ولا مال وفير، إلا أن يكون الهدف قيمة أكبر من المادة، وأشواقاً أعظم من ضرورات الحياة الجسدية الفانية؟

إن أهداف الدعوة أسمى من المادة، وأعظم من (الرغيف) و(الثوب) اللذين اتّخذتهما الدعوات المادية هدفاً وغاية.. إنه الإيمان العميق والبحث عن رضوان الله دون سواه.

* * *

تسرّب الأساطير والوثنية الفارسية إلى تاريخنا:

يخلط بعض المستشرقين جاهلين أو متجاهلين بين أحداث تاريخنا الإسلامي التي تقع، وبين كثير من الخيالات والأساطير التي تتسرب لنا من بعض الكتب الفارسية وفي ثناياه تنساب روح الوثنية والمزدكية والإباحية في بعض الأحيان، مما يلوّث الوجه المشرق للتاريخ الإسلامي، ويخدش الهالة أو الحقيقة التي يفترض أن تقدَّم للأجيال في إطار من التجلّة والاحترام، دون تنزيهٍ يُدخل الشخوص والأحداث في نطاق العصمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ومن أشهر هذه الكتب التي اعتمدها بعض المستشرقين مصدراً لتاريخنا: كتاب (ألف ليلة وليلة)، الذي يضمّ بين دفّتيه أساطير خيالية وصوراً من الحياة الاجتماعية الهابطة، التي لا علاقة لها بالإسلام والمسلمين؛ لأنها لا تعتمد أحداثاً تاريخية صادقة، وإنما تعتمد أساطير تمزج بين أمجاد الفرس ووثنيّتهم، ونمط الحياة الاجتماعية التي كانوا

يعيشون، وقد وُضع الكتاب كما يبدو بهدف التسلية والترويح عن بعض الملوك والأباطرة لا بهدف الدراسة التاريخية الرصينة والبحث العلمي الموضوعي الموزون.

* * *

الكتاب والسيف معاً.. ولكلٍّ دور:

كانت «اقرأ» أول كلمة نزلت في كتاب ربّنا العظيم على هيئة أمر ربّاني لنبيّه الأميّ الكريم، أن ينشر المعرفة بين الناس، وأن يبدّد ظلمات الجهالة بنور العلم واليقين.

وتبعتها كلمات «اقرأ» أخرى في السورة نفسها بلغت خمساً في مطلع السورة الأولى التي افتتح بها المنهج الربّاني للحياة الإنسانية في مسيرتها الطويلة.

ونزل في سورة أخرى قَسَمٌ بالقلم وما يسطرون، لما للقلم من أهمية وأثر عميق يتركه في المجتمع الذي يجوس خلاله. والقارئ بإمعان لكتاب الله يلاحظ أنّ فيه من الكلمات ذات العلاقة بالعلم والمعرفة والعقل والفكر ما يشكّل أضعافاً مضاعفة للكلمات الحاثّة على القتال أو ما له علاقة باللقاء والمواجهة على أرض المعركة.

والمتابع لأحداث السيرة من أول يوم، يدرك أهمية ضريبة العلم والمعرفة التي فرضها الرسول ﷺ على أسرى بدر؛ أن يعلّم كلُّ أسيرٍ عشرةً من أبناء المسلمين لقاء إطلاق سراحه وفوزه بالحرية.

ومع ذلك يسلّط المزوّرون الضوء على السيف في يد المجاهد وميدان المعركة، بحيث يبدو الوسيلة الوحيدة لنشر الإسلام، في الوقت

الذي يعتّمون فيه على القلم والكتاب في يد العالم وميدان العقل والبحث العلمي المستنير.

ومن الإنصاف لو أُخِذَ بأساليب البحث العلمي وروح الإنصاف أن يُذكَرَ الأثر الذي خلّفته كلمة ربعي بن عامر ـ مبعوث رسول الله ﷺ إلى عظيم الفرس في مجلس كسرى، وهو يشرح أهداف الدعوة وغايات الرسالة التي بعث بها الرحمة المهداة للناس كافة ـ: «أن يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»، مما أشعر المستضعفين من الأرقّاء والخدم والجند في بلاط كسرى بمستوى جديد من الدعوة للمساواة الإنسانية وتكريم الإنسان، وهو أمر فتح القلوب في إيوان كسرى قبل أن يفتح أبواب إيوانه ويهزّ أركان بنيانه.

مثل هذه الروح التي سرت كالرياح تحمل تباشير اللقاح، لتنتج أمة قوية جديدة أسهمت في صنع حضارة إنسانية رفيعة التطلّع سامقة الصروح، هي التي أسهمت في دحر الظلم ونشر ألوية العدالة.

ولعلّ صورة المجاهد المسلم، وهو يثب حرّاً طليقاً من ظهر جواد يسقط من تحته، إلى ظهر جواد سقط فارسه، ويلقي بسيف حطم في يده ليتناول سيفاً آخر سقط من يد شهيد، يقابلها صورة حشد من جند الفرس، وقد شدّ بعضهم إلى بعض بالسلاسل خشية التراجع؛ ما يقدّم لنا الفارق الكبير بين مَن يحمل في يده مشاعل الحرية يضيء بها طريق الحيارى وينقذ بها المستضعفين، وبين مَن يسخّره الطاغوت لاضطهاد شعبه وقهر أمته.. صورتان لا تستويان، وموقفان لا مجال للانسجام بينهما بحال!.

ولعل مثل هذا المعنى هو الذي يُفهم من قول رب العزة سبحانه:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرٗا﴾ [النساء: ٧٥].

ولعلّ المعنى نفسَهُ هو الذي أملى على الفاتحين الأبرار أن يُعيدوا الجِزية لأهل حمص حين انسحب الجيشُ الإسلامي منها ولم يعد قادراً على حماية المستضعفين، لأن حَمَلة القرآن المنير والسيف المنقذ ليسوا نهّابين ولا سلّابين ولا قُطّاع طريق.

أما أندونيسيا وتلك البقاع الإسلامية النائية، فلم يدخل أهلها الإسلام إلا عبر صدق حديث، وأمانة تعامل، وكريم علاقات إنسانية هادفة دفعت بمئات الألوف ثم الملايين أن تدخل فيّ دين الله أفواجاً، وكان الفضل بعد الله للتجار ولرجال البحر من أبناء حضرموت، الذين جمعوا بين العربية لغةً وديارا، والإسلام فكراً وعقيدةً ومناراً.

وليس أدلّ على عطاء الإسلام العمراني وثمراته الخيّرة ورحمته الواسعة من ذلك التراث العريض والحضارة السامقة التي تركت في كل بلد دخله المسلمون مناراً، ورفعت في كل بقعة وصلوا إليها مَعْلَماً متميّزاً يتمثّل في الجامعات والمستشفيات والقصور والحدائق والمؤلّفات ودور الكتب، بحيث تركت بصماتها على معطيات الحضارة الإنسانية المعاصرة مما لاينكره إلا كل جَحود.

هذا هو الإسلام المنصف بعدله، المشرق بعلمه، الشامخ بإنسانيته، يحاول المزوّرون أن يطمسوا معالمه هذه، ومعطياته الخيّرة، ليُبرزوا السيف وحده يصول ويجول في مختلف الساحات وشتى الميادين.

* * *

عندما يكون الإسلام والعروبة وجهين لعملة واحدة:

المعروف من تتبُّع السيرة وأحداث التاريخ أن المسلمين الأوائل كانوا يستعملون كلمات: (الصحابة والمؤمنين والمسلمين والمهاجرين والأنصار)، مقابل كلمات (المشركين وقريش والكافرين)؛ إذاً كانت المعركة دائرة بين رموز الشرك في مكة ومَن والاهم، وبين رموز الإيمان وأصحاب الرسول ﷺ وسرايا الجهاد وجيش الفتح؛ وكانوا يستعملون المصطلحات نفسها للمؤمنين المسلمين، وقد يضيفون إليها كلمة العرب إذا كانت المعركة تدور بين حَمَلة الدعوة وبين الروم أو الفرس، على أنه لا يخطر على بال منصف قطّ أن المسلمين الأوائل يعنون بالعرب والعروبة الإلحاد الذي لوّثها، أو العلمانية التي مسختها، أو الماركسية التي تمسَّح بها ذات يوم الرفاق الجدد على امتداد الساحة العربية منذ وُلد المفهوم الجديد للعروبة في محاضن الغرب ودهاليز الجامعة الأمريكية في بيروت التي كانت تُعرف عند إنشائها بالكلية السورية الإنجيلية.

ولذا فإننا نقف في كتابات المستشرقين على محاولة مَسْخ مشترك لتاريخ العرب والمسلمين، لأن العرب في نظرهم هم حَمَلة الإسلام الأوائل، ورافعو لوائه بعد أن قُضي على الشرك، وعمّ الجزيرةَ العربية دينُ التوحيد؛ أما حين يتميّز العرب القرشيون بالشرك، وأصحاب الرسول ﷺ بالإيمان والتوحيد، فإن الحملة على الرسول وأصحابه تبدو واضحة، والثناء العطِر وإبراز مناقب المشركين يطلّان من خلال السطور مثلما فعل المستشرق (لامانس) الذي كان (إذا تحدّث عن محمد وأصحاب محمد لم يَسْلَم واحد منهم من غمزاته ولمزاته وطعناته، أما إذا تحدّث عن أعداء الإسلام كأبي جهل وأبي لهب وعن المنافقين وأعداء الدين، فإنه يشيد بهم، ويمدحهم، ويلبسهم من الفضائل أثواباً لامعة خلاّبة).

وهنا يكمن السرّ في الخلط لدى (الشعوبيين) بين الانتقاص من تاريخ العرب وتاريخ المسلمين، وهم يقدّمون حضارتنا للعالم ويعملون فيها مسخاً وتشويهاً، ذلك أن حقدهم على العرب يبدو واضحاً حين يكون العرب مؤمنين موحّدين حَمَلةً لمشاعل الحضارة وألوية المعرفة؛ أما حين يكون العرب جاهليين يعيشون في جزيرتهم يرعون الشاء ويربّون الإبل، فلا يشغل المستشرقين منهم شاغل، ولا يحرّكون فيهم رغبة في دراسة أو حرصاً على بحث.

وهنا لابدّ من إبراز هذه الحقيقة التي يحاول الكثيرون طمسها، وهي أن الشعوبية تعني حملة العداء والتشويه التي يقودها أعداء الإسلام ضد الإسلام وحضارته، وضد العرب حين يكونون جنداً له حَمَلةً للوائه روّاداً لحضارته، لا العرب في جاهليتهم، حيث لا وزن لهم ولا حضور في ساحة الحضارة العالمية وميادين العطاء الإنساني الرفيع.

محاولة النيل من الرسول العظيم من خلال الثناء على عمر:

يثني بعض المستشرقين على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ثناءً عطِراً تحسَب معه أن الكاتب واحدٌ من المنصفين، وأنّه ينطلق من موقف متجرّد وحكم نزيه، ثم لا تلبث أن تحسّ بالغرض يسري فيما كتب، وبالمرض يهزّ أوصال بحثه وعطائه حين يبدأ في تجسيد عَظَمة عمر، ليحاول بعدها النيل من عَظَمة محمد ﷺ.

ويشير بعض المؤرخين إلى عمر العادل الزاهد الحازم الشجاع، وهي صفات نفخر أنها غراس في حقل النبوة وثمرات من روض الإسلام، ثم لا يلبث المؤرّخ أن ينكفئ ليشير لامزاً كيف أن عمر هاجر علناً لا يخشى أحداً لشجاعته، وأن الرسول قد هاجر سراً خوفاً على حياته،

وقد نسي هؤلاء أن هجرة الرسول سرّاً مأمورٌ بها وحياً، وأنّ رب العزّة قد وجّه نبيه ﷺ في أمر الهجرة تخطيطاً وتنفيذاً؛ حرصاً على حياته ونأياً به عن أن يناله من الأذى ما يَحْرِم الدعوة من قيادتها وهي في أول الطريق وبداية المسيرة، في حين كان عمر يمثّل جندياً من جند الدعوة المباركة الذي التفّ من أمثاله حول الرسول عدد من الرجال، وإن كان لعمر نمط خاص عُرف به، وصفات فذّة اشتهر بها وتميّز.

الصحابة عدول، ولكنّهم بشر يصيبون ويخطئون:

الصحابةُ باتفاقٍ عدولٌ، من حيث أنهم لا يَكْذبون على رسول الله ﷺ، ولكنهم في حدود بشريّتهم رجال يصيبون ويخطئون، ويحبّون ويكرهوه، ويرضون ويغضبون؛ والمستشرقون والطائفيون من الكتّاب والمؤرّخين لا يعرفون من الصحابة إلاَّ وجه الخطأ والكراهية والغضب، ولو كان قليلاً في خضمّ عطائهم الخيّر الثرّ، فهم في نظر المغرضين بشر تحرّكهم الأطماع، ويوجّه مسيرتهم الرغبة في الحصول على الغنائم وتولّي مراكز القيادة والمسؤولية؛ ويستشهدون بأحداث فردية ومواقف شخصية لهذا الصحابي أو ذاك ثبتت تاريخياً أو لم تثبت، ويعمي أولئك المؤرخين الحاقدين الغرض عن عرض الوجه المشرق للصحابة الأجلاّء بأنّهم كانوا أرفع نمط من البشر وأرقى أنموذج سوي عرفته الحياة الإنسانية.

يذكر المستشرقون المغرضون للصحابة الأجلاّء خلافاً يقع أو غضباً يحدث أو تقصيراً يبدو، وينسون صفحات مشرقة ومواقف مضيئة لا تُحصى تتمثّل في التضحية والإيثار والوفاء والصدق والأمانة والإقدام والبر والمرحمة مما يرتفع بهم إلى مستوى يقرّبهم من الملائكة الأطهار.

ونحن حين ندعو إلى التفكير في إعادة كتابة التاريخ من جديد، لا ندعو معه إلى تبرئة الصحابة من كل خطأ وتنزيههم عن كل زلّة، ولكنّا ندعو إلى الإنصاف في العرض، والذوق في الحديث، والصدق والدقة في تتبّع الأحداث وتمحيص الوقائع؛ لتكون أقرب إلى الحقائق التي ينشدها المنصفون ويبحث عنها الدارسون الهادفون.

كان الرشيد ورعاً وعالِماً ومجاهداً..

مما ثبت عن الخليفة العباسي هارون الرشيد، أنه كان يحجّ عاماً ويغزو عاماً لنشر دين الحق والنور والعدالة، وأنه كان يُكرم العلماء ويقرّبهم إليه، وأنّ ديار الإسلام في عهده قد اتّسعت رقعتها وامتدّت أطرافها، مما جعله يقف بعزّة المؤمن وثقة القائد يخاطب الغمامة من شرفة قصره ببغداد: اذهبي وأمطري أنّىٰ شئتِ فإن خَرَاجَك راجعٌ إليّ!..

فما بال تاريخنا الذي بين أيدينا ومن تدوين أعدائنا لا يحدّثنا عن حج الرشيد وشقّ عين زبيدة لتوفير الماء للحجاج، ويتجاهل غزوات الرشيد وجهاده في سبيل الله، ويضرب صفحاً عن موقفه من نقفور ملك الروم الذي نقض العهد مع الرشيد، وامتنع عن دفع ما عليه لبيت المال ـ وكان الروم يدفعونه لعاصمة الخلافة في بغداد ـ ويأتي الجواب من الرشيد: «الجواب ما ترى لا ما تسمع..» ليحاصر عاصمة الروم بجيش الفتح ويدحر جيشهم!

ما بالنا ننسى، أو نتناسى مدوّنو تاريخنا المزوّرون موقف الرشيد من العلم وتكريم أهله، واستقدام العلماء وزيارته لهم في مواطنهم ومجالسهم، ويصرّون على إبراز حضور الشاعر أبي نواس في بلاط الرشيد، وتردّده عليه، ويبالغون في الحديث عن الجواري، بحيث يظهر

لنا خليفة المسلمين ماجناً يمضي أيامه ولياليه في اللهو والعبث الذي لا طائل تحته؟

نحن لا نبرّئ الرشيد من أخطاء وقع فيها، وليس من الخطأ أن نسرد أخطاءه أو نناقشها عند الحديث عن تاريخ الرجل واستعراض الأحداث في عهده، ولكن الإنصاف يقضي أن نُلقي الأضواء على علمه وورعه وجهاده، مما يشكّل جوانب مضيئة في حياة هذا الخليفة العظيم.

القرون الوسطى بين الظلمة والنور:

يطلق مزوّرو تاريخنا مصطلح عصور الظلام على فترة (العصور الوسطى) نظراً لما كان يعاني الغرب في تلك العصور من محاكم التفتيش ومطاردة العلماء واضطهادهم، وبسبب ما كان قائماً يومذاك من تفشّي الجهالة والأمراض بينهم، وقد سرّبوا هذا المصطلح إلى تاريخنا، فصرنا نتحدّث عن التخلف في العصور الوسطى وعقلية الناس فيها، ونسينا أن القرون الوسطى بالنسبة لتاريخنا كانت عصور نور وثقافة ومعرفة وحضارة، عرفنا فيها الجامعات والمكتبات وكليات الطب والمستشفيات ومؤسسات الرعاية العامة، والحدائق والمتنزهات والحمامات الخاصة في المنازل والعامة في الأحياء.

وكانت شوارع المدن الإسلامية يومذاك مبلّطة مضاءة بالمصابيح في صورة من التكامل العمراني الأمثل، في حين كانت المدن الأوروبية غارقة في الوحل والظلام معاً.

الأتراك العثمانيون، ما لهم وما عليهم:

الأتراك العثمانيون شعب مسلم حمل راية الإسلام وعمل على إعلاء

كلمة التوحيد على امتداد الساحات التي كان له فيها حضور، وقد أحسن العثمانيون وأساؤوا، وأصابوا وأخطؤوا، واستقاموا وانحرفوا، ولدولتهم مواقف مشرفة وعليها مآخذ لا يُحمَدون عليها، وقد سطروا في تاريخ الإسلام صفحات مشرقة مضيئة وأخرى لا إشراق فيها ولا ضياء.

ومن الإجحاف بحق الأتراك العثمانيين أمةً ودولةً أن تتناولهم كتب التاريخ التي بين أيدي أبنائنا بالإساءة والتجريح وإبراز عيوبهم، والتعفية على ما لهم من فضل على أمة الإسلام ودينها الحنيف.

ونحن في هذا المقام لا نعمل على تبرئة ساحة العثمانيين من كل خطأ، أو تنقية صفحاتهم من كل عيب، ولكنا نبحث عن الحقيقة حيثما وُجِدت والحكمة حيثما ومضت؛ لنثبت الحق والصِّدق، ونُبرز صور الصواب وملامح الجمال في تاريخ المجاهدين من العثمانيين. ومثلما نرفض أن يزوَّر التاريخ لصالح أعداء المجاهدين من العثمانيين، فإننا نرفض أن يزوَّر التاريخ لصالح المنحرفين الطغاة من الأتراك العثمانيين كذلك.

إنَّ المتتبع لوقائع التاريخ وأحداثه في العهود العثمانية المتتابعة يلاحظ أمراً هاماً جديراً بالتأمّل، حيث لا نجد للعثمانيين سوءات ذات بال حين كانوا يحكمون بالإسلام ويحرصون على رفع راية الجهاد تحت لواء التوحيد، ولكنا نواجه السوءات والخطايا وصور التجنّي والباطل كلما تخلّى العثمانيون عن الإسلام، وحكَّموا في الأمة مقاييس القومية الطورانية بإيعاز من الشخصيات والجمعيات السرية المشبوهة التي تحرّكها الماسونية العالمية، ويعبث بها يهود (الدونما) من أمثال جمعية الاتحاد والترقّي، وجمعية تركيا الفتاة، وغيرها مما يمكن أن يُرجع له في تاريخ دولة الخلافة في أخريات أيامها.

ومن البدهي أن يعمل مزوّرو تاريخنا على طمس الصفحات المشرقة للعثمانيين، وأن يعيث المستشرقون الصليبيون والطائفيون من تلامذتهم فساداً في صفحات التاريخ ليؤرثوا الأحقاد وينشروا بين العرب والأتراك الفرقة والفساد.

ويتساءل العقلاء المنصفون من رجال القلم وأعلام الفكر والمعرفة:

لمصلحة مَن ننسى مواقف الأتراك المضيئة ورايات جهادهم وهم يزحفون على أوروبا يعلنون كلمة التوحيد ويرفعون راية الإسلام، لينشروه في عدد من بقاع أوروبا الشرقية في يوغسلافيا وهنغاريا وبلغاريا وغيرها، وفي عدد من بقاع أوروبا الغربية التي لولا تكتّل ممالك إيطاليا وفرنسا والنمسا، لكان للإسلام في تلك البلاد اليوم شأن وحضور كبير.

ومن ذا ينكر الدور الذي قام به العثمانيون حين استنجد بهم العرب المسلمون في شمال إفريقيا، يوم زحفت عليهم الجحافل الغازية من إسبانيا وغيرها، وعلى رأسها الكاردينال (خمينس)، مما دفع بالمسلمين في الشمال الإفريقي وبخاصة في المغرب العربي قاطبة، أن يستنجدوا بالدولة العثمانية التي سارعت رغم محنتها في إرسال الحملات العثمانية الإسلامية البحرية، وعلى رأسها القائد المجاهد خير الدين بارباروس، الذي راح يجوب البحر الأبيض المتوسط ليطهر الشواطئ الإفريقية الشمالية من الغزاة، حتى مكّن للإسلام فيها مرة أخرى وحمى المسلمين في تلك الديار من شرٍّ محقّق.

والقسطنطينية التي بشّر رسول الله ﷺ بفتحها، مَن ذا الذي فتحها غير السلطان محمد الفاتح، الذي وضع خطة غاية في دهاء التدبير وروعة الإعداد العسكري ودقة التنفيذ؛ يوم حمل السفن برّاً على جذوع الشجر،

ثم دحرجها وأنزلها إلى البحر خلف البيزنطيين من حيث لا يتوقعون، مما أدى إلى دحر أسطولهم وهزيمتهم، وفتح القسطنطينية التي أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة، وحملت اسم اسلامبول أو استانبول.

لماذا نحاول أن نطمس تاريخ مثل هذا السلطان محمد الفاتح، الذي أمضى أيامه ولياليه في خيام الجهاد، وعلى صهوات الجياد، ولم يعرف طعم النوم والراحة في المدن والقصور، سوى أيام معدودة لم تتجاوز خمسة وعشرين يوماً.

إن الأمة مازالت تذكر للسلطان عبد الحميد الثاني (المفتَرى عليه) موقفه المشرف يوم طرد عميد الصهيونية هيرتزل من مجلسه حين طلب أن يمنحه مرسوماً يعترف فيه بفلسطين وطناً قومياً لليهود، فكان جواب السلطان أن فلسطين ليست مزرعة من مزارعه ولا بيتاً من ممتلكاته حتى يتنازل عنها لليهود، ولكنها جزء عزيز غالٍ ومقدس من ديار الإسلام. وكانت النتيجة أن يدفع السلطان الثمن غالياً، حين تآمرت عليه الصهيونية العالمية والصليبية الدولية، فعملتا على إسقاط الخلافة، ليحلّ محلها قوم مشبوهون وفئة متآمرة متظاهرة بالإخلاص لتركيا، وهي في حقيقة الأمر تكنّ الولاء للأجنبي والعداوة للإسلام وأهله.

إننا ندرك أن في تاريخ الدولة العثمانية ظلماً وقع وإجحافاً مارسه بعض الحكام ضد بعض رعاياها، وأن محاولات جرت لتتريك العرب وفرض التبعية عليهم، ولكن ذلك كله لم يقم باسم الإسلام، بل باسم القومية الطورانية، ولم يقع باسم الخلافة، بل باسم الجمعيات السرية المشبوهة، فمتى ننصف العثمانيين دراسة وتاريخاً حتى نعرف ما لهم من حسنات ومواقف مشرّفة، وما عليهم من خطايا وسيئات، الأمر الذي يجعلنا أمة جديرة ليس بكتابة التاريخ فحسب، بل بصنع أحداثه كذلك.

لقد كان لبعض المؤرخين الطائفيين من النصارى دور مغرض عجيب يبدو واضحاً في تناقضه وهم يمجّدون المؤسسات والقيادات التركية التي حاربت الإسلام والعربية معاً، ودعت إلى هجر العرب والعربية لغة وحرفاً. ومع ذلك فإن المغرضين من أولئك المؤرّخين يعزون جميع سوءات الدولة العثمانية، وينسبون عيوبها للخلافة الإسلامية المشرقة الصفحات لا للمتآمرين عليها، العاملين على هدمها في حلف شيطاني رهيب، جمع نصارى الغرب ويهود العالم في خندق واحد؛ بحيث صاروا جميعاً يضربون عن قوس واحدة.

والباحث في تاريخ تأسيس الجمعيات التركية السرية، يدرك دور اليهود وغيرهم من نصارى الغرب في تحريك النشاط المعادي للإسلام في صفوف تلك الجمعيات المشبوهة المتآمرة.

لقد سَعَتْ جمعية تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ويهود طائفة الدونما الذين تظاهروا بالإسلام؛ إلى تقويض دعائم الدولة العثمانية وأركان الخلافة الإسلامية، وأبرزوا بعض الشخصيات التركية المناهضة للعربية والإسلام، وألبسوها ثياب البطولة والوطنية في الوقت الذي كانت تلك الشخصيات تسعى لقطع كل رابطة تمتّ للعرب والعربية والإسلام والمسلمين بصلة.

ولقد ثبت تآمر تلك الشخصيات على وطنها تركيا وعقيدة أمتها الإسلامية، وعلى العلاقات العربية التركية التي يمكن أن تسير لما هو أفضل لو حَسُنت النوايا وطَهُرَ الهدف.

ومن أبرز تلك الشخصيات المشبوهة مصطفى كمال، الذي لقّب نفسه باسم أتاتورك ـ أي أبو الأتراك ـ والذي أبرزه المؤرخون الغربيون،

وسار على منوالهم المؤرخون من الصليبيين؛ على أنه بطل قومي وزعيم عالمي، في الوقت الذي دعا فيه لقطع العلاقات مع العرب نهائياً وإلغاء اللغة العربية والحرف العربي في المجتمع التركي الحديث، بل أمعن في كراهية العرب إلى حدّ لم يُسبق إليه.

وليس أدل على تآمره وخيانته لبلده تركيا أنه عرض ـ وهو على فراش المرض ـ على السفير البريطاني في استنبول؛ أن يتولّى الحكم بعده في تركيا ليحافظ على المكاسب التركية التي حققها العالم الغربي عبر تولّيه الحكم بعد سقوط الخلافة؛ ولولا تنبّه الحكومة البريطانية لهذا الأمر الذي يكشف المؤامرة ويفضح الموقف، لكان حاكم تركيا بعد أتاتورك بريطانياً يستمدّ التعليمات والخطط والأوامر من حكومة التاج البريطاني مباشرة ودون تمويه[1].

للمماليك صفحات مشرقة أبرزها دحر التتار وإنقاذ الديار:

كل صفحات التاريخ في عصور المماليك يقدّمها مزوّرو تاريخنا مظلمة قاتمة، ومع اعترافنا بالحقيقة المرّة، أنّ تمزّقاً كان يقوم بين طوائف المماليك وولاءاتهم المتعددة؛ فإن إشراقة من الإيمان تطلّ علينا وشموعاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمسّ الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد.

إن من التجنّي أن ننسى الدور الرائد الفذّ الذي قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إيماني إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف التتري، الذي كان يستهدف عقيدتنا وديارنا وأمتنا، ويسعى

---

(١) راجع كتاب الرجل الصنم، تأليف (ضابط تركي سابق)، وترجمة عبد الله عبد الرحمن، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٢، مطبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

لاجتثاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة اندحار الغزاة وهزيمة المعتدين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصادق المتين.

إنّ معركة عين جالوت تمثّل مَعْلَماً مضيئاً في خضم الظلمات، ومثلها معالم أخرى لو بحثنا عنها في عهد المماليك لوجدناها في مدرسة تنشأ ومكتبة تُقام وصرح للخير والبرّ والمرحمة يعلو.. ولكن كيف يمكن أن تبرز مثل هذه المعالم المضيئة ومهمة المزوّرين أن يغرقونا في بحور من الظلمات؟!.

الممالك الإسلامية في غير الديار العربية:

تخلو معظم صفحات التاريخ المدوّنة بين أيدينا بالعربية من ذكر الممالك الإسلامية في البلاد الآسيوية غير العربية، سواء كانت في الهند أو أفغانستان أو إيران أو الملايو أو أندونيسيا، مما يلغي صفحات مشرقة من تاريخ الإسلام في تلك البلاد، سواء ما كان يمثّل المسيرة العلمية أو النهضة العمرانية، أو ما يتعلّق بإعداد الجيوش وفتح البلاد ونشر دعوة التوحيد في المجتمعات الوثنية المعروفة يومذاك.

ويكاد أبناء أجيال متلاحقة من أمتنا يجهلون أسماء تلك الممالك ومن حَكَمَها من الملوك، وما أسدوه للعلم والحضارة من معطيات مازالت ماثلة للعيان حتى اليوم أنموذجاً حيّاً على حضارة الإسلام في تلك الديار.

ومن المؤسف ألاّ يعرف كثير من المثقّفين وخريجي الجامعات شيئاً عن تقوى محمود الغزنوي ـ ملك مملكة غزنة في بلاد الأفغان ـ وما كان عليه من حبّ للعمل وتقرّب إلى الله بحمل راية الدعوة وبثّ روح الجهاد والاستشهاد في جنده، وما كان يتحلّى به من قيم إسلامية مثلى كان لها أعمق الأثر في ازدهار مملكته والتفاف الناس حوله في محبة وتفانٍ ووفاء.

وقس على ذلك الكثير مما يجهله المسلمون عن نماذج مماثلة لتلك المملكة الزاهرة وذلك الملك العادل في صور شتّى من تطبيق القيم السامقة أو إقامة صروح الحضارة؛ ممثّلة في مسجد أو مدرسة أو دار كتب أو مستشفى عبر القارة الهندية الغاصّة كذلك بالمفتريات والأحقاد على الإسلام والمسلمين.

وفي البلاد الإفريقية المتعددة، حيث ينتشر الإسلام اليوم.. كم قامت ممالك وعاشت دول، وعرفت حضارة مازالت معالمها حتى اليوم.. ولكن أين المنصفون؟

التزوير المعاصر للتاريخ الحديث والواقع المعاش!:

لعلّ أكبر عملية تزوير جماعية تلك التي تجري في عصرنا الحديث، مما تقوم به الحكومات والمؤسسات ووسائل الإعلام، ويمارسها زعماء سياسيون وحَمَلة أقلام مرموقة، بحيث ينتفي شرف الخصومة في حالات الخلاف، وتموت معه روح البحث العلمي والإنصاف.

ولعلّ مما يربك الناس ويزدري عقولهم ويشلّ تفكيرهم ما يتلقّونه عبر الإذاعات المسموعة والمرئية، وما يطالعونه في الصحف على اختلاف نزعاتها؛ من أنباء ومعلومات ومرويات بعضها ينقض بعضاً، بحيث أنّ ما يقوم اليوم ينهار وينقضه ما يأتي به الغد الذي يليه، مما أورث الناس الشك في صدق كثير مما يقال، واليقين في أنّ عملية تزوير كبيرة تجري على قدم وساق للتاريخ المعاصر وأحداثه المعاشة.

ولسنا ندري تحت أي عنوان يمكن أن تسجل الأحداث المعاصرة التي تمرّ بنا وتقع على أرضنا وتعاني منها أمتنا اليوم، وبِمَ نسمي كل حَدَثٍ منها عند دراسته والتأريخ له، وكيف نبرّره ونرضاه، أو نقبل بعرضه وتلقّيه كما يراه المدوّنون.

ـ ماذا يمكن أن نسمّي وضع الحكومات المتعاقبة في أكثر من بلد عربي على خط النار وحدود الأرض المحتلة، وكل يوم يُفتح فيها للأجنبي مدرسة، وللشيطان خمّارة أو مرقص أو دار قمار أو مؤسسة ربا.

ـ وبمَ نعلّل للأجيال هزيمة سبعة جيوش عربية منظّمة أمام ما نسمّيه بالشرذمة: في ساعات لا أيام، وقد كنا نملأ الدنيا صراخاً بما لدينا من سلاح متطوّر يمكن أن يدمّر في لحظات مدن العدو، ويلقي بشراذمه في البحر.. ثم نعود فنسمي ذلك (نكسة) نضفي عليها بعد شهور من هزيمتنا هالات الانتصار ونقيم لها معالم الزينة؟.

ـ كيف نبرّر لأجيالنا غداً وهم يُقلّبون صفحات التاريخ، كيف أن البساط يُسحب من تحت أرجل المجاهدين الذين حرّروا بلدهم بمليون شهيد ليستقرّ في مواقع الحكم بعد التحرير عناصر من اليسار العربي المتآمر أو المتغطرس وحمله راية العلمانية المتخالة، ويصبح هؤلاء ـ الذين لم يكن لهم من مواقف الجهاد إلا شعارات تُرفع وعناوين أعلام تُنشر ـ هم أصحاب القرار؟

ـ أين وجه الحق في بلد يقيم حاكمه في كل رمضان لقاءات للعلماء ودروساً للفقهاء، وهو يضرب الحركة الإسلامية ويطارد رموزها ويقرّب بممارساته السياسية اليسار، ويوطّد أركان الحكم في بلده للفكر المستورَد في مقبل الأيام؟

ـ كيف يصدّق أبناء الأجيال القادمة أن عاصمة عربية قتلت من أبنائها في فتنة الصراع على مقاعد الحكم خمسة عشر ألفاً خلال ثلاثة أيام، وأنها قد استخدمت في ذلك الصواريخ وقذائف المدفعية والطيران وسلاح البحرية، وأنّ ذلك كله كان يجري ـ كما تقول وسائل إعلام الأخوين

المتقاتلَيْن ـ باسم الحفاظ على الحرية وصيانة الديمقراطية ومن أجل تحقيق رفاه الشعب والحرص على مكتسباته؟

ـ وماذا نسمّي أوضاعاً في بلد عربي يحكمه زعيم عجوز لا يكاد يصدر أمراً حتى يصدر في اليوم التالي ما ينقضه، وأن أذى ذلك الزعيم لم يسلم منه أحد من بني وطنه حتى أقرب المقرّبين إليه من أهل بيته ورفاق مسيرته.. وما من مسؤول في ذلك البلد قادر على التساؤل أو الاستفسار إلى أين نمضي؟.. وماذا يُراد بنا؟ ولماذا يجري كل هذا الاستبداد والحرص على التسلّط حتى في الرمق الأخير من عمر الزعيم المبجل؟

ـ وأي تبرير يمكن أن يقدم بين يدي اختيار بلد عربي إفريقي عضواً في أكبر منظمة عربية رسمية في الوقت الذي يتخلّى فيّه ذلك البلد عن اللغة العربية والحرف العربي لِلَّحاق بركب الداعين لهجر لغة القرآن واستعمال الحرف اللاتيني الدخيل إرضاءً لرغبات الأجنبي ونزوات الحريصين على مراكز الحكم المنفّذين لتلك الرغبات؟

ـ ماذا نسمي الحال الذي نحن عليه، ونحن نرى بلداً عربياً يمثّل (سلة غذاء العالم العربي) لو دعمنا أهله بما لديهم من أرض خصبة وماء وفير، لوفّر للجياع من أبناء أمتنا الغذاء مما يغنينا من الاستجداء ومد أيدينا لأعدائنا وأصدقائنا على حدٍّ سواء، ولكنّا ندعهم ليموت منهم كل يوم جوعاً مئات ويُنفُقُ من ماشيتهم ألوف؛ لتجف سلة الغذاء وتنضب، والمال العربي يكدس في المصارف الأجنبية يصنع به العدو ما يحلو له وما يروق؟

ـ وأي عبثية يمكن أن نُطْلِع أجيالنا عليها حين يقرؤون في مقبل الأيام أن وجبات ساخنة تستورد بالطائرات من أوروبا طعاماً لطلاب المدارس في بلد عربي أو أكثر، وأن بعض أبناء هذا البلد أو ذاك مازالوا يهيمون في الصحارى على وجوههم أشباه عراة؟

ـ وكيف نشرح لأبنائنا غداً أن نزوة طارئة أو رغبة في التوسع أو استجابة لطلب خارج عن طموحات أمتنا قادت بلدين مسلمين متجاورين إلى حرب طاحنة أكلت الأخضر واليابس، والتهمت من جثث أبناء البلدين مئات الألوف، وأن تلك الحرب قد أتت على ثروات البلدين وهدرت أموالهما بما في ذلك الثروات المستقبلية؟

ـ مَن ذا يصدِّق أن أمتنا وقفت ذات يوم، وهي في أوج فورتها وشموخ ثورتها؛ تؤيد الهند ضد باكستان، وتنصر اليونان على تركيا، وتهتف لجوليوس نيريري قاتل العرب والمسلمين في زنجبار؛ في الوقت الذي كان فيه رموز الحكم من قياداتنا يضطهدون الحركة الإسلامية، ويرفعون شعار (القومية العربية) كما يزعمون!.

ـ ومَن ذا يتصوَّر أن حرباً عارمة وفتنة طائفية عمياء قامت في بلد عربي يقتل فيه الأخ أخاه، والجار جاره، ولا يدري القاتل لماذا قَتَل، ولا القتيل لماذا قُتِل، وأن أمتنا هي الخاسرة في الحالين عند مراجعة حساب الأرباح والخسائر؟

ـ ومَن ذا يتخيَّل أن ثروات بلد عربي منكوب تُبدَّد على عصابات تغتال أبناء البلد وتطارد الفئة الواعية منهم لمجرّد أنهم يختلفون مع (الزعيم الأوحد) الحاكم بأمر مَن نصَّبوه، وأنّ أموال ذلك البلد العربي تُنفق على حركات ثورية أجنبية بقصد تحرير (الدنيا) من ظالميها حتى نال (مالطا) نصيب من مال الإنقاذ والتحرير!.

ـ مَن ذا يقبل أو يرضى أخباراً تطالعنا بها وسائل الإعلام عن أكثر من هاوٍ من الهواة اشترى جملاً أو حصاناً عربياً بالملايين، واليهود يرصدون من الأموال الأمريكية أو الأموال العربية المدّخرة في المصارف الأمريكية ما يصنعون به غواصة أو يطوّرون به طائرة؟.

ولمزيد من الإمعان في التزوير بطلب من المؤرخ (الرسمي) أن يقدّم كل هذا الحشد من ممارسات العبث والتخلّف والفرقة والتفسخ والبطش والطغيان والجهالة والسفه والانحلال؛ على أنها عين التقدّم والوحدة والتماسك والعدل والعلم والحكمة والفضل، وأن يُلبس هذا البلاء ثوب الخير والعطاء، وأن يصوّر البشاعة جمالاً والظلام نوراً، وأن يتفنّن في التزوير والتضليل، بحيث يُعَفّي على آثار الجرائم المتلاحقة التي تُرتكب كل يوم في حق الوطن والإنسان، لتبدو الصورة الرهيبة البشعة لوحة أخّاذة آية في الذوق والفن والجمال.

ومن هنا فإن مهمة المؤرخين للتاريخ المعاصر مهمة ثقيلة ليس من السهل أداؤها ما لم يتزوّد أصحابها، بالإضافة إلى المقاييس الموضوعية العلمية، بمقاييس أخلاقية تنبع من التقوى وخوف الله الذي يخاطب عباده بمعيار لا يخضع للنزوات ولا يتحكّم فيه الهوى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

* * *

المنهجية السوية والروح الموضوعية
تبرز صفحات تاريخنا المضيء
وتنقذه من الإفتراءات

المنهجية السوية والروح الموضوعية

ولابد لنا ونحن ندعو إلى ضرورة التفكير في إعادة كتابة التاريخ من جديد وعرضه عرضاً سليماً للأجيال وتمحيصه بأسلوب علمي هادف؛ من وضع منهجية سوية وقواعد موضوعية هدفها تقديم الحقيقة في قالب يجمع بين الصواب الذي يُعْرَض، والأسلوب الذي لا يعود على الأمة في مختلف عصورها بالإحباط، ويقودها إلى مزيد من الفرقة والتمزّق والضياع، الأمر الذي حتّم علينا أن نبيّن المنطلقات التي لابد من اعتمادها في وضع منهجية راشدة طموحة تقوم على:

١ ـ **النظرة التكاملية للتاريخ الإسلامي**، التي تبرز تاريخنا في صورة متكاملة تتناول جوانب الفكر في شموله، والقيم في إشراقها، والمعرفة في تعدّد ألوانها، والحياة الاجتماعية المتماسكة، والجهاد الهادف، والإنتاج والعطاء الغزير، والأمن المستقرّ، وغير ذلك مما لا يجعل تاريخنا مجرّد حروب متداخلة، ومعارك متلاحقة، يحاول خصومنا ومزوّرو تاريخنا من خلالها أن يُظهروا السيف قبل القلم، والرمح قبل الكتاب، وأرض المعركة قبل رحاب الجامعة أو جنبات المختبر؛ على ما للسيف من أهمية، وما للجهاد من مكانة في المجتمع الإسلامي، لأنه ذروة سنام الإسلام.

٢ ـ **العمل على تمحيص كتب القدامى ودراستها**، والبحث في حياة مؤرّخيها وكتّابها، تماماً كما يتم أو قريباً مما يتم في علم الرجال في

الحديث النبوي الشريف؛ لمعرفة الغثّ من السمين والحق من الباطل، مما يكتبه أولئك المؤرخون من أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلكان وابن خلدون والقرطبي وغيرهم.

ولابد من دراسة ميول القدامى من المؤرّخين: المذهبية والحزبية والسياسية، حتى لا يدخل تاريخنا كثير من الأوهام مدحاً أو هجاءً عبر انفعالات المنفعلين، وحماسة المتحمّسين لهذا الأمير أو ذاك في مختلف العصور الإسلامية.

٣ ـ **رفض الكتّاب الطائفيين**، وعدم الاعتماد عليهم والتحذير منهم وإعادة النظر في كل ما كتبوه، وقراءة ما بين السطور في حياتهم، لمعرفة الدوافع والأسباب التي جعلتهم يتخصّصون، بل ينفردون في كتابة تاريخ أمتنا، والعبث به وتشويه صفحاته، ولابد من حملة عادلة منصفة تسلّط الأضواء على زيفهم، وتفضح تآمرهم، وتدعو إلى رفض كثير مما كتبوه وزوّروه.

٤ ـ **دراسة أحوال المستشرقين**، وضرورة التمييز بين مستشرق في كتابته شيء من الموضوعية، ومستشرق نذر نفسه للطائفية والشيطان، ليُسهم في تضليل أجيالنا وتشكيكها في تاريخها وعقيدتها وسرّ قوتها وازدهارها. ونخصّ بالذكر أولئك الذين تحرّكهم المطامع الاستعمارية، أو المجامع الكنسية في حِلْفٍ شِرّير جَمَع بين السيف والصليب معاً على امتداد الساحة الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى أن يتناوب المعركة محاربان؛ سيف الصليب بيد المقاتل، أو قلم الصليب بيد المفكّر، والضحية في الحالتين الأمة الإسلامية والأجيال الإسلامية المتعاقبة.

* * *

وفي ظلّ هذه المنهجية السوية والروح الموضوعية، يمكن أن تقوم معالم مضيئة في تاريخنا، وأن تُنشر صفحات يعتزّ بها المنصفون جميعاً من بني الإنسان، ممثّلةً في القيم الإنسانية والمنجزات الحضارية، التي تعرض منها صورة موجزة ونماذج مشرقة يزهو بها الزمان. . .

أولاً ـ الجانب الخُلقي الذي يمثله السلوك السويّ والقيم الفُضلى والمُثل السامية النابعة من التقوى واتّباع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، ويبدو ذلك واضحاً في الدعوة إلى البرّ بالوالدين وصلة الأرحام والإحسان للجار والأخوّة الصادقة بين المؤمنين، وحسن التعامل مع الناس كافة، والرفق بالحيوان، مع ما يتبع ذلك كله من معاني المساواة والرحمة والعفّة والصدق والأمانة والإخلاص وإتقان العمل والإيثار وإنكار الذات والتواضع والبذل في سبيل الله، وغير ذلك مما حفل به تاريخنا، مع إبراز أحداث تمثّل هذه القيم في إطار هذا الجانب الهام من تاريخ خير أمة أُخرجت للناس.

ـ كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري: «عظني»، فكتب إليه: «أما بعد: فلو كان لك عمر نوح ومُلك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان عليهم السلام، فإن وراءك عقبة هي الموت، ومن ورائها داران، إن أخطأتك هذه صرت إلى هذه. والسلام».

ـ أرسل أبو جعفر المنصور إلى سفيان الثوري رحمه الله، فلما دخل عليه قال: «سلني حاجتك أبا عبد الله. قال: وتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فإن حاجتي إليك أن لا ترسل إليّ حتى آتيك، ولا تعطيني شيئاً حتى أسألك». ثم خرج.

فقال أبو جعفر المنصور: «ألقينا الحَبَّ إلى العلماء فلقطوا، إلا ما كان من سفيان الثوري، فإنه أَعْيَانا فراراً.

ـ حجّ هارون الرشيد ثم توجّه بعد الحج إلى المدينة المنورة، وأراد أن يسمع الحديث عن الإمام الجليل مالك بن أنس، فأرسل يطلب إليه الحضور من بيته، فقال مالك لرسول الخليفة: «قل لأمير المؤمنين أنّ طالب العلم يسعى إليه، أما العلم فلا يسعى إلى أحد..».

وأذعن الخلفية لما قال مالك وزار الإمام في داره. ولكنه أمر أن يخلى المجلس من الناس، فأبى مالك إلا أن يظلّ الناس كما كانوا، وقال: «إذا مُنع العلم عن العامة فلا خير فيه للخاصة».

وأذعن الخليفة مرة أخرى لرغبة الإمام، وجلس مع الناس يسمع الحديث من مالك.

ـ قال عبد الملك بن مروان لمعلم ولده:

«إني قد اخترتك لتأديب ولدي، وجعلتك عيني عليهم وأميني، فاجتهد في تأديبهم، ونصيحتي فيما أنصحك فيه من أمرهم: علّمهم كتاب الله عزّ وجلّ حتى يحفظوه، وقِفْهُم على ما بيّن الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، وروّهم من الحديث أصدقه، ومن الشعر أعفّه».

وفي وصية أخرى قال:

«علّم بَنِيَّ القرآن، وخذهم بمكارم الأخلاق، وحثّهم على صلة الأرحام، ووقّرهم في الملأ، وأخِفْهم في السر، فإنّ الأدب أملك بالغلام من الحسب، وتهدّدهم بي، وأدّبهم دوني، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه، فإنّ ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم».

ـ عهد الرشيد إلى الأحمر النحوي بتعليم ابنه الأمين، ووضع له منهج تربيته وخطة دراسته، فكتب إليه:

«يا أحمر: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين.

أقرئه القرآن، وعرّفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلّمه السنن، وبصّره بمواقع الكلام، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباها فعليك بالشدة والغلظة.

ثانياً ـ الجانب السياسي ونظام الحكم الذي يُبرِز صوراً مشرقة من عدل الحاكم وطاعة الرعية والشورى بينهما، وصوراً أخرى تؤكّد مفاهيم الحرية في إبداء الرأي والجرأة في مخاطبة الحاكم ومحاسبته إذا أخطأ، وتقبّل الحاكم ذلك في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتبع ذلك مفهوم المساواة بين الناس، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، والتركيز على معنى تحمّل المسؤولية، مما يقيم أسساً واضحة بيّنة تحفظ للمواطن كرامته وللحكم هيبته في أفياء طاعة الله ورضوانه.

ـ خرج أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى سوق الكوفة يوماً حاملاً سيفاً من سيوفه الأثيرة لديه يعرضه للبيع، ولما عجب بعض القوم لذلك، سأله رجل في دهشة: كيف يبيع واحداً من أسيافه؟

فقال رضي الله عنه: «والله لو كان معي ثمن إزار ما بعته!..».

تُرى أيعجز أمير المؤمنين أن يمدّ يده لبيت المال ليشتري له إزاراً ولأولاده طعاماً، أم أنها العفّة في السلوك والقدوة في الحكم من رجل

عاش في بيت النبوة طفلاً بريئاً، فشاباً مضحّياً، فزوجاً ورعاً وشريك حياة رضية لفاطمة الزهراء، وأباً قدوةً للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين.

ـ كلّف الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً أن يشتري له ثوباً بثمانية دراهم، فاشتراه الرجل له، وأتاه به فوضع الخليفة يده على الثوب وقال: ما أنعمه!.

فتبسّم الرجل متعجباً من قول الخليفة، فقال له عمر: ما دعاك للتبسّم يا رجل، وما من سبب يدعو لذلك؟!

قال الرجل: ياأمير المؤمنين.. لقد اشتريتُ لك ثوباً قبل أن تتولّى أمور الخلافة بثمانمئة درهم، وقد وضعتَ يدك يومئذ عليه فقلت: ما أخشنه.. واليوم يا أمير المؤمنين تقول عن الثوب الذي لا يتجاوز ثمنه ثمانية دراهم: ما أنعمه!

قال الخليفة: لقد تبدّل الحال ياهذا.. وصارت أمور المسلمين أمانة في عنقي، إنها مسؤولية الخلافة والحكم، وما أحسب أن رجلاً يبتاع ثوباً بثمانمئة درهم يخاف الله عز وجل!.

ـ دخلت فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز عليه وهو في مصلاه تسيل دموعه على لحيته، فقالت: «ما يبكيك يا أمير المؤمنين!»، قال: «يا فاطمة! إني تقلّدت من أمر أمة محمد ﷺ، أسودها وأحمرها، فتفكّرت الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد؛ فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت أن لا تثبت لي حجة، فبكيت».

ـ حين أرسل الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسامة بن زيد على رأس جيش لقتال الروم، خرج الخليفة ليودّع الجيش وهو يمشي على قدميه وأسامة راكب على فرسه.

فلما رأى أسامة الخليفة ماشياً قال له: يا خليفة رسول الله.. لتركبنّ أو لأنزلنّ!

قال أبو بكر: «والله لا تنزل ووالله لا أركب.. وماذا على أبي بكر أن يغبّر قدميه ساعة في سبيل الله؟ فإن للمجاهد بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تُكتب له، وسبعمئة درجة تُرفع له، وتُرفع عنه سبعمئة خطيئة».

ولما وصل إلى المكان الذي ودّع فيه الجيش، التفت أبو بكر إلى أسامة وقال مستأذناً: «إن رأيت أن تُعِينني بعمر فافعل. فأذن له أسامة بذلك».

ـ وقف سعد بن أبي وقاص أمام (المدائن) ولم يجد شيئاً من السفن، وقد زادت (دجلة) زيادة عظيمة، واسودّ ماؤها، ورمت بالزبد من كثرة الماء بها، فخطب سعد الجيش على الشاطئ، وقال: ألا إنّي قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل.

ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس لم يتخلف منهم أحد، فساروا كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملؤوا ما بين الجانبين فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرجّالة، وجعل الناس يتحدّثون على وجه الماء كما يتحدّثون على وجه الأرض، فلما رآهم الفُرس يطفون على وجه الماء، قالوا: «ديوانه.. ديوانه» يقولون: مجانين، مجانين، ثم قالوا: «والله ما تقاتلون إنساً، بل تقاتلون جنّاً».

ثالثاً ـ **الجانب المالي ونظام الاقتصاد** الذي يؤكّد أن المال مال الله، وأن الناس مستخلَفون فيه، وأنّ الحجْر على السفيه المبذّر من خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، بالإضافة إلى إحياء الموات من الأرض، وسؤال الحاكم عما بين يديه من مال أنّى مصدره، وتخصيص نفقة من بيت المال للطفل والمرأة والشيخ العاجز، وتوفير ضرورات الفرد في المجتمع كالعمل والبيت، وتيسير الزواج والطعام والكسوة والدواء والمعالجة والتعليم ووسيلة النقل، وتحريم الربا والغش والاحتكار والاستغلال، وتمييز النظام الاقتصادي في الإسلام وخصوصيته؛ فلا هو رأسمالي يثري الفرد على حساب الجماعة، ولا هو ماركسي يذيب الفرد ويغفل طموحاته في دوّامة حكم الدولة ودكتاتورية الحزب؛ بالإضافة إلى نظام الميراث وأحكامه في الإسلام، مما يجمع القلوب ويفتّت الثروة؛ ونظام الوقت وأحكامه، مما يُعدّ قيمة حضارية إنسانية سامقة؛ مع الإشارة لازدهار التجارة وتبادل البضائع بين مختلف الأقطار، والتعامل بالحوالات المالية والصكوك وأحكام الرهن والإجارة والمرابحة والمساقاة، وغير ذلك مما لا مجال لتفصيله هنا وتفيض به الكتب والموسوعات المتخصصة.

رابعاً ـ **الجانب القضائي** القائم على استقلال القضاء في الدولة الإسلامية، وعدم خضوع أحكامه حتى لرأس الدولة، وقيام محكمة للمظالم لا يُعفى من الوقوف أمامها أحدٌ مهما عَلَتْ منزلته؛ الأمر الذي أدى إلى وقوف (الخليفة) نفسه ذات يوم مع خصمه بين يدي القاضي، وصدور حكم عليه لصالح غيره وفق ما تقتضيه روح العدالة، بالإضافة إلى أدب القاضي والمتقاضين لديه، وما للقاضي من مكانة رفيعة وشأن عظيم.

ـ استأجر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرساً من رجل ليحمل عليه، فأصاب الفرس عطب فخاصم الرجل عمر.

فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً يحكم بيننا.

فقال الرجل: إنني أرضى بشريح العراقي.

فقال شريح لعمر: أخذت الفرس صحيحاً سليماً، فأصابه ما أصابه وهو عندك فأنت له ضامن حتى تردّه لصاحبه صحيحاً سليماً.

وكان هذ الحكم الجريء العادل الذي صدر ضد الخليفة، هو الذي حفز عمر ودفعه لتعيين شريح قاضياً يحكم بين الناس بالعدل.

ـ كان شريح لا يجلس في مجلس القضاء إلا بعد تناول طعامه في بيته، وصلاة ركعتين في المسجد، ثم يجلس بعد ذلك في مجلس القضاء، فيخرج من حقيبته رقعة ينظر فيها قبل النظر في القضايا التي بين يديه.

وقد قيل لابنه يوماً: «ألا تُخرج لنا هذه الورقة فنعرف ما فيها؟». قال: بلى، فلما أخرجها وقرأها للناس، وجدوا أن القاضي قد كتب فيها كلمات تذكّره بالله وتحثّه على الحكم بالعدل والثبات على الحق: «يا شريح بن عبد الله! إذا وقف الخصوم بين يديك، فاذكر موقفك بين يدي الله، واذكر مرورك على الصراط».

ـ اختصم الخليفة العباسي المأمون مع رجل، بين يدي قاضي بغداد يحي بن أكثم فدخل المأمون وخلفه خادم يحمل وسادة فاخرة لجلوس الخليفة. فرفض القاضي يحي أن يميز الخليفة على أفراد رعيته، وقال:

يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه، فاستحيا المأمون، ودعا بوسادة فاخرة أخرى ليجلس عليها خصمه في مجلس القضاء.

ـ كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عماله في أقطار البلاد الإسلامية أن يعلنوا للناس أن الخليفة قد خصص جوائز لمن يطلع أمير المؤمنين على ظلم يقع، أو يخبره بأمر من أمور المسلمين يرفع به عن الناس الضرر والأذى ليعيش الناس في أمن وسلام وراحة بال.

وقد جعل الخليفة الجوائز بين مئة دينار إلى ثلاثمئة دينار جزاء من يدلّ الخليفة على عمل الخير وفعل الصالحات.

ـ قدم رجل على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه عاملاً من عماله قد استولى على أرضه بغير حق، فلما تبيّن للخليفة صدق الرجل، كتب إلى عامله أن يعيد الأرض إلى صاحبها، ثم سأل الرجل قائلاً: كم أنفقت في مجيئك إليّ؟

قال الرجل: بارك الله فيك يا أمير المؤمنين.. تسألني كم أنفقت في سفري، وقد رددت عليّ أرضي وهي خير لي من مئة ألف دينار.

فقال الخليفة: إنما رددت عليك حقك، فأخبرني كم أنفقت في سفرك؟ فلما أخبره الرجل بذلك، دفع له مقدار ما أنفق في سفره وزاد على ذلك بضعة دراهم أخرى ليشتري بها طعاماً يأكله في رحلته وهو عائد إلى أهله.

ـ غضب الخليفة المهدي يوماً على أهل الشام، فأراد أن يوجّه لهم جيشاً، فقال له أحد جلسائه الناصحين: يا أمير المؤمنين، عليك بالتجاوز والعفو عن المسيء، فلئن تطيعك العرب طاعة محبّة، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

خامساً ـ الجانب العلمي: المتمثّل في إنشاء الجامعات كجامعة الأزهر بمصر، والقرويين بالمغرب، والزيتونة بتونس، ومراكز البحث وتأسيس المكتبات الخاصة والعامة في الحواضر الإسلامية والأمصار، والتنافس بين الحكام في جمع الكتب، وتكريم العلماء، وتلقّي الأوروبيين العلم في جامعات ديار الإسلام؛ كما حدث للبابا سلفستر الثاني، الذي تلقّى العلم في جامعات الأندلس. كما يبدو ذلك أيضاً في منهج البحث العلمي لدى المسلمين، وظهور الموسوعيين من علماء المسلمين، وتشجيع حركة الترجمة ونقل العلوم وتبادل المعرفة، مع ذكر نماذج مشرقة من علماء المسلمين في مختلف مجالات العطاء العلمي الذي أسهم في بناء صرح الحضارة الإنسانية وتطويرها؛ من أمثال الرازي وابن سينا وابن النفيس والخوارزمي والبتاني وابن خلدون والفارابي وابن الهيثم وجابر بن حيان وغيرهم. وكيف كان الحكام أنفسهم علماء في كثير من حقول المعرفة الإنسانية في الفقه والحديث والتفسير والأدب والشعر والحكمة وشؤون السياسة والحكم والمال، وكان بعضهم مطّلعاً على جوانب شتّى من ألوان المعرفة بكل معطياتها المفيدة وأبعادها النافعة.

ـ أمر الخليفة المأمون ببناء (دار الحكمة) في بغداد، وكانت ملتقى الأعلام من رجال العلم والعقل والفكر في شتى فروع المعرفة.. وكانت (دار الحكمة) مُفَتَّحَة الأبواب فسيحة الرحاب لكل طالب علم من كل لون وجنس.

وقد كان في (دار الحكمة) مكتبة عظيمة تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب التي تبحث في شتى فروع المعرفة وأنواع العلوم، مما ساعد طلاب العلم والمعرفة على الاطلاع والتزوّد بكثير مما كانوا يرغبون فيه ويبحثون عنه.

وكان يتبع (دار الحكمة) مرصد فلكي يُعدّ من أوائل المراصد التي بنيت في العالم، وكان يتردّد عليه كبار الفلكيين يرقبون ويتتبعون مواقع النجوم وحركاتها وانحراف دائرة البروج ومواقيت الشمس والقمر، وكان لأولئك الفلكيين أجهزة استطاعوا أن يحددوا بها حجم الأرض وطول محيطها، وأن يقيسوا أبعادها بالميل والدرجة. وقد انتهوا بأبحاثهم إلى نتائج لا تكاد تختلف إلا باليسير اليسير عما أثبته العلم الحديث اليوم بعد مئات السنين.

ـ أمر الخليفة العباسي السابع والثلاثون المستنصر بالله ببناء جامعة في بغداد تحمل اسمه، وفي عام ٦٣١هـ الموافق ١٢٣٣م فرغ البناؤون من بنائها، وقد بلغت تكاليف إنشائها ٧٠٠٠٠٠ دينار من الذهب.

وبعد أن فرغ المهندسون والبنّاؤون والنقّاشون من صنع جدران الجامعة وساحاتها وقاعاتها، أراد الخليفة المستنصر بالله أن يحتفل بافتتاحها في يوم مشهود يحضره العلماء وأهل الفضل وأعيان البلاد والمدرّسون والشعراء، كما دعا لذلك عدد من الضيوف الأجانب، وأمر أن توزع الهدايا على من اشتركوا في بنائها وإعدادها، وعلى من حضر حفل الافتتاح.

وكانت (الجامعة المستنصرية) تُدرس فيها مختلف أنواع العلوم؛ من علوم القرآن والدين واللغة والطب والرياضيات والفلك والجغرافيا وغيرها، وتعتبر من حيث تنوّع ما يُدرس فيها من العلوم من أقدم الجامعات في العالم. وكان الأساتذة فيها من أكبر العلماء ذوي الاختصاص في ذلك العصر.

وقد أمر الخليفة بتطبيق نظام الغذاء الكامل لجميع الطلاب والعاملين

في الجامعة من الأساتذة والمدرّسين والمستخدمين، وكان للجامعة استقلال مالي وإداري وميزانية خاصة تعتمد على ما يُوقَف عليها من الأوقاف، التي بلغت نحو مليون دينار كانت تدرّ دخلاً سنوياً قدره ٧٠٠٠٠ دينار ذهبي!.

ـ حين أتمّ البنّاؤون والمهندسون إنشاء الجامعة المستنصرية ببغداد عام ٦٣١هـ ـ ١٢٣٣م؛ أهدى الخليفة المستنصر بالله للجامعة هدية لا تُقدَّر بثمن؛ وكانت مجموعة كبيرة من الكتب بلغت (٨٠) ألف مجلّد وكتاب ومخطوط، أمر الخليفة بنقلها من مكتبته الخاصة إلى مكتبة الجامعة، لتكون المراجع ومصادر البحث العلمي بين يدي الطلاب والعلماء والباحثين، مما يسهم في رفع مستوى العلم بينهم ويزيد من ينابيع المعرفة تتفجر في ديار الإسلام للنهوض بصرح الحضارة في خدمة الإنسانية.

ـ في إيوان الطب وفي مواجهة الباب الرئيسي للجامعة المستنصرية ببغداد عام ٦٣١هـ تقع ساعة عجيبة فريدة من نوعها، صُنعت على هيئة نصف دائرة لها اثنتا عشرة طاقة لكل منها باب من الذهب، وفي أسفل الدائرة من جانبيها بازان من ذهب، وبعد مرور كل ساعة ينفتح فما البازين وتسقط منهما بندقتان من نحاس، وكلما سقطت بندقة انفتح أحد الأبواب المذهّبة وتحوّل إلى فضي، وهذا ينبئ أن ساعة زمنية قد مضت، وبهذه العملية القائمة على أسس علمية فلكية وهندسية يتمكّن تلامذة الجامعة المستنصرية وأساتذتها وروّادها من معرفة الوقت وتحديد الزمن في يومهم من الليل أو النهار.

سادساً ـ الجانب العمراني: ويشمل بناء المدن وإقامة الأسواق المتخصّصة للباعة والحرفيين كالصاغة والبزازين والصباغين والعطارين

والنحاسين والصيارفة وغيرهم، وإنشاء الحمامات الخاصة في البيوت والعامة في الأحياء والأسواق، وتنظيم الحدائق وزراعة البساتين مع المحافظة على الشجرة والحثّ على زراعتها وإنشاء البرك ونوافير المياه والأقنية وسدود الري، ومنارات الشواطئ وأحواض بناء السفن ودور سك النقود؛ والنهوض بالصناعات المختلفة، كصناعة الصابون والورق والأقمشة وصناعة الأسلحة وغير ذلك، مما يُعدّ أساساً من أسس الدولة ومظهراً حضارياً من مظاهر ازدهارها.

ـ كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور ـ الخليفة العباسي الشهير ـ ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القريبة منها، فلما عزم المنصور على بنائها، أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالمساحة وقسمة الأرضين، ثم وضع بيده أول حجر في بنائها وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». ثم قال: «ابنوا على بركة الله»، وبلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمئة ألف درهم، وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مئة ألف، وكان لها ثلاثة أسوار، يلي الواحد منها الآخر، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وبلغت عدد روابيها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي، وأربعة آلاف بالجانب الغربي، وكان فيها ـ عدا دجلة والفرات ـ أحد عشر نهراً فرعياً تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها، وكان في دجلة وحده من المعديات (من وسائل العبور النهري) ثلاثين ألف، أما حمّاماتها فقد بلغت ستين ألف حمّام.

وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمئة ألف مسجد. وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فيها، فذلك ما لا يحيطه حصر.

ـ لم يكن لأهل مكة من المناهل والمسايل التي يجور بها المطر

أحياناً، وبعض البئار التي تفيض آناً وتجف آناً. . وكان الحجاج يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم، ويثقل ظهورهم، فلما حجّت زبيدة بنت جعفر زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد، اعتزمت أن تحفر لآل مكة وقصّاد البيت الحرام نهراً جارياً يتصل بمنابع الماء ومساقط المطر بالغة ما بلغت النفقة والمشقّة. فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال، فتهيب خازنها من كثرة النفقة، فقالت له: اعمل ولو كلّفتك ضربة الفأس ديناراً، وتمّ إنشاء عين زبيدة التي حملت ماء الحياة سائغة هنيئة إلى أم القرى وأهلها وقصّادها.

ـ لما رأى المسلمون أنهم يخوضون مع الروم معارك بحرية؛ بدأوا يفكّرون في بناء السفن وتأسيس الأساطيل البحرية في أكثر من ثغر من ثغور الإسلام. وكان أول أسطول إسلامي أُسّس في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. ثم عمل المسلمون على تأسيس أحواض خاصة لبناء السفن سمّوها (دور الصناعة)، وكان لها مراكز عدة أهمها:

١ ـ مدينة عكا على الساحل الفلسطيني بديار الشام. وقد أمر بإنشاء دار الصناعة فيها معاوية بن أبي سفيان عام ٤٩ هـ.

٢ ـ جزيرة الروضة بمصر، وقد أسست فيها دار صناعة السفن سنة ٥٤ هـ، وسُمّيت جزيرة الروضة جزيرة (الصناعة).

٣ ـ تونس على الساحل الإفريقي الشمالي، وقد أمر بإنشاء دار الصناعة فيها عبد الملك بن مروان حين تولّى الخلافة بين عامي ٦٥ ـ ٨٦هـ، وجلب لها من الأخشاب ما تحتاجه، كما أرسل لها من العمّال والفنيين المصريين ما يعين على بناء السفن وتجهيزها بالآلات البحرية.

وقد أمدّت دور الصناعة الجيش الإسلامي بعدد من السفن لدعم

الأسطول الإسلامي، الذي استطاع الاستيلاء على عدد من الجزر مثل: صقلية وسردينية، وكان له هيمنة بحرية وسيطرة على عدد من السواحل والبحار، مما ساعد على الحدّ من عدوان الروم على بعض ثغور المسلمين، وأعان على توسيع رقعة الفتح الإسلامي العظيم.

ـ أول من صنع الورق في العالم هم أهل الصين، وكان ذلك عام ١٠٥ ميلادية. ثم قام بعد ذلك أمير من أمراء سمرقند، فأنشأ مصنعاً للورق عام ٥٧١م.

وفي عام ٧٩٣م استقدم الخليفة هارون الرشيد بعض صنّاع الورق من سمرقند إلى بغداد، فأنشؤوا فيها أول مصنع للورق.

وانتقلت صناعة الورق بعد ذلك إلى دمشق فمصر، وحلّت محل ورق البردي الذي كان المصريون يستعملونه للكتابة.

ومن مصر انتقلت هذه الصناعة إلى شمال إفريقيا، ومنها إلى الأندلس عام ١١٠٠م، ومن الأندلس إلى إيطاليا وأوروبا عام ١٢٧٦م.

وقد تم إنشاء أول مصنع للورق في ألمانيا عام ١٣٩١م، أما في فرنسا فقد أسس أول مصنع للورق فيها عام ١٤٩٤م.

وهكذا أسهم المسلمون في كل المجالات الحضارية، وقدّموا للعالم كل أسباب الرقيّ وشتّى وسائل المعرفة والثقافة والمدنية.

ـ كانت قرطبة ـ في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي ـ عاصمة الأندلس المسلمة؛ تُنار بالمصابيح ليلاً، ويستضيء الماشي بمصابيحها عشرة أميال. وسكانها أكثر من مليون نسمة ـ بينما كانت أكبر مدينة في أوروبا لا يزيد عدد سكانها عن خمسة وعشرين ألفاً ـ وكانت حماماتها تسعمئة، وبيوتها ٢٨٣٠٠٠، وقصورها ثمانون ألفاً، ومساجدها ستمئة مسجد، وفيها مئة وسبعون امرأة كلهنّ يكتبن المصاحف بالخط الكوفي،

وخمسون مستشفى، ومسجدها الجامع لم يوجد له نظير في الفخامة وروعة البناء . . .

ـ قارن الطبيب المؤرخ الأمريكي (فكتور روبنصون) بين الحالة الصحية وغيرها في الأندلس وفي أوروبا خلال فترة تاريخية واحدة، فقال:

« . . . كانت أوروبا في ظلام حالك بعد غروب الشمس، بينما كانت قرطبة تضيئها المصابيح العامة . . !

وكانت أوروبا قذرة، بينما شَيّدت قرطبة ألف حمّام . . !

وكانت أوروبا غارقة في الوحل، بينما كانتْ قرطبة مرصوفة الشوارع . .

وكانت سقوف القصور في أوروبا مملوءة بثقوب المداخن، بينما كانت قصور قرطبة تزيّنها الزخرفة العربية العجيبة . . !

وكان أشراف أوروبا لا يستطيعون توقيع أسمائهم، بينما كان أطفال قرطبة الإسلامية يذهبون إلى المدارس . . !

وكان رهبان أوروبا يلحنون في تلاوة سفر الكنيسة، بينما معلمو قرطبة قد أسّسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة ! ! ».

سابعاً ـ الجانب الإداري والأمني: ويتمثّل في تنظيم الدواوين ونظام الحسبة للإشراف على سلوك الناس في جنبات المجتمع، وأسلوب التعامل بينهم في المجتمعات العامة، ومراقبة أسعار السلع، وتنظيم شؤون الحرفيين والصنّاع، وإنشاء نظام البريد، وتأمين القوافل التجارية

وحمايتها، وإقامة فرق الشرطة والعسس، والحرص على أمن المجتمع، حتى يبيت المواطن كما قال ﷺ: «آمناً في سربه».

ثامناً ـ الجانب الفني الجمالي: ويتمثّل في أنماط من الهندسة المعمارية المتميّزة، التي عرفت بها العمارة في العهود الإسلامية العديدة، كما يبرز الجانب الفني في الزخارف والتفنّن في ألوان من الخطوط التي استخدمت في كتابة الآيات وتدوين القرآن الكريم، وكتابة الرسائل بالإضافة إلى الحفر على النحاس والفضة وغيرهما من المعادن، كما يبدو في تنسيق الحدائق ونوافير المياه وغير ذلك، مما يضفي على المنازل والحدائق والمدارس والمكتبات والحمامات العامة، والشوارع والساحات والأحياء والمدن في المجتمع الإسلامي؛ رونقاً متميّزاً ومظهراً جميلاً، ما زالت بصماته بادية للعيان ومرجعاً للدارسين في الحياة الأوروبية حتى يومنا هذا.

تاسعاً ـ الجانب الصحي الطبي: الذي يتمثّل في رعاية الصحة العامة، وإنشاء المستشفيات، وإقامة كليات الطب، ودور صناعة الدواء، ووضع نظام التأمين الصحي ونظام الحَجْر الصحي، وتخصيص مرافقين وزوّار للمرضى يرعونهم، بالإضافة لبناء دور لرعاية المرضى ومعالجتهم والعناية بهم، والنهي عن تلويث الهواء والماء والطريق بما يفسدها ويضر بالصحة العامة، واعتبار طهارة الثوب والبدن والمكان من شروط صحة الصلاة، وافتتاح كتب الفقه جميعاً بباب الماء وأنواعه، والطهارة وأنواعها من غسل واستنجاء ووضوء، والحث على النوم المبكر والصحو المبكر، وعدم الإكثار من الطعام، والدعوة إلى المداواة والاستشفاء لدى الأطباء، وغير ذلك من الأبعاد والمعطيات التي تحقق للمواطن الشعار الذي أعلنه الرسول ﷺ في المجتمع الإسلامي: أن يكون «معافى في بدنه».

ـ كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أول من بنى المستشفيات

في الإسلام، وجعل فيها الأطباء، وعيّن لهم الرواتب والمكافآت.

وقد أمر بمنع المصابين بمرض الجذام المعدي من الاختلاط بالناس، فعيّن لهم داراً لا يخرجون منها، وكلّف مَن يقوم بإيصال الأرزاق إليهم.

وكان يتعهّد الأيتام فيرتّب لهم مَن يختنهم، ومَن يعلّمهم، وكان يرتّب للمرضى والمسنّين والمقعدين مَن يقوم على خدمتهم ورعاية شؤونهم، ويعيّن للمكفوفين مَن يقودهم.

وقد خصّص الخليفة المسلم عطايا ينفق منها على العلماء والضعفاء والفقراء، وحرّم على المحتاجين سؤال الناس، وعيّن لهم ما يكفيهم ويغنيهم عن سؤال عباد الله، وصارت الدولة في عهده كافلة أن تؤدي الخدمات العامة للناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم.

ـ كانت بغداد في عصر الخليفة هارون الرشيد عاصمة الدنيا ومضرب الأمثال في الرقيّ والعمران، وقد كان فيها من المستشفيات عدد كبير يتمتّع بالمواقع الجميلة التي تتوفر فيها كل شروط الذوق والصحة والجمال، وقد زوّدت حمّاماتها بماء يجري مُدَّ لها من نهر دجلة.

ـ وفي قرطبة في بلاد الأندلس زاد عدد المستشفيات في تلك الآونة على عدد المستشفيات في بغداد، إذ بلغ خمسين مستشفى، وهو عدد كبير لو قورن بعدد المستشفيات حتى في المدن الأوروبية المعاصرة.

ـ من مظاهر رحمة المسلمين بالناس أنّ وقفاً في (طرابلس) قد أوقفه صاحبه يوماً لاستئجار اثنين يذهبان كل يوم إلى المستشفى يتفقّدان المرضى ليقفا بجانب المريض وهما يتحدّثان بصوت خفيض وكلام خافت يسمعه المريض، والرجلان يوهمانه أنهما يتكلّمان سرّاً عنه.

ويقوم حوار هادف رحيم بين الرجلين:

الأول: ما رأيك في هذا المريض اليوم؟

الثاني: إني أراه اليوم أحسن منه بالأمس، فوجهه مشرق، وعيونه متألقة!

الأول: الحمد لله إنه يبدو بخير وهو في طريقه إلى تمام العافية بإذن الله.

ثم ينصرف الرجلان وقد سمع المريض كلامهما، وهو لا يدري أنّ الحوار موجَّه، بعد أن أوحيا إليه ما يعتقد في نفسه التقدم نحو الشفاء.

ـ في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ أقام الأمير مظفر الدين ـ أمير أربيل بالعراق ـ عدداً من دور الرعاية العامة لأصناف من الناس من ذوي الاحتياجات الخاصة. وقد خصّص لهذه الدور النفقات، وأجرى عليها الأموال الكثيرة، وأهم تلك الدور:

١ ـ دار رعاية الزمنى ـ وهم المصابون بمرض الجذام المعدي ـ.

٢ ـ دار رعاية العميان.

٣ ـ دار رعاية الأيتام.

٤ ـ دار رعاية الأرامل.

وكان الأمير مظفر الدين يبحث عن المرضى والعميان والأيتام والأرامل؛ ليرسل كلاً إلى الدار التي خُصِّصت له، وقد زوّدها بكل ما يحتاج إليه النزلاء من طعام وشراب وكساء وعلاج، وعيَّن لهم مَن يشرف على علاجهم أو رعايتهم أو تربيتهم.

وكان ـ يرحمه الله ـ يقوم بتفقّدهم وزيارتهم يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، فيجالسهم ويؤانسهم ويقدّم لهم المنح والعطايا والهبات

والهدايا، بالإضافة لما خصَّصه لكل دار من مال وما أجرى عليها من نفقات، وكان يتعهَّد اليتيمات بعد أن يكبرن، فيسعى لتزويجهن ويتعهَّد الأيتام من الشباب؛ فيُلحق كل واحد منهم بعمل.

ولم يكتفِ الأمير مظفر الدين بهذه الدور، بل أقام في أربيل داراً للضيافة؛ يقدَّم فيها الطعام والشراب، ويوفَّر فيها المأوى لمن قدم على أربيل أو حلَّ بها طالب علم أو تجارة أو عابر سبيل حتى يغادر المدينة أو يلتحق بعمل.

عاشراً ـ الجانب الاجتماعي: الذي يتمثَّل في نظام الأسرة، وعلاقة ذوي القربى والأرحام، واعتبار الأسرة النواة الأولى للمجتمع، وما خُصَّت به من رعاية، وتشجيع الزواج، وتشجيع البرّ بالوالدين، وتماسك الأسرة، ورعاية الجار، وحُسْن التعامل مع الناس، وإقامة ملاجئ للعجزة والمسنين والأيتام، وتخصيص مبالغ شهرية للمعوزين، وكفالة المرأة ورعايتها؛ أمّاً وزوجة وأختاً وبنتاً وذات قربى، والحثّ على الرفق بالحيوان، ومعاملة كلّ ذي كبد رطبة معاملة رقيقة حانية.

الجانب الجهادي أو العسكري: الذي أورده كثير من المؤلفين في مصنّفاتهم دون تمحيص، وأبرزوا فيه دَور القتال وصور المعارك وكأنها وحدها هي التي تمثّل الإسلام دون سواها، وقد جاء حديثهم عن تلك المعارك أحياناً تحاملاً على حاكم وتأييداً لآخر وفق موقع المؤلف ومكانه من هذا الأمير أو ذاك.

والأمر الذي لابد منه في هذا المجال أن يمحَّص تمحيصاً جيداً، وأن يُعرَض عرضاً مشوّقاً دون تشويه للحقيقة أو تغيير للواقع والحدث مع الحرص على عدم التركيز على السلبيات وتقديمها مكثّفة للجيل الناشئ،

حتى لا يناله من الإحباط ما يورثه اليأس ويدعوه إلى التنكّر لتاريخه المشرق وتراثه العريق.

ولابد عند الحديث عن الجانب العسكري من تناول الجهاد هدفاً ووسيلة وآداباً وأساليب وثمرات ونتائج، وإبراز الجوانب الإيجابية المشرقة فيه، مع البعد كل البعد عن شبهات المغرضين من المستشرقين ودس المزوّرين، الذين عبثوا بتاريخ الماضي ومعطيات الحاضر وطموحات المستقبل.

* * *

من تعاليم الإمام علي كرّم الله وجهه ووصاياه للجنود

«إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم من قبل الإشراف وسفوح الجبال أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم ردءاً أو دونكم ردءاً، ولتكن مقاتلتكم من وجهٍ واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافةٍ أو أمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جيمعاً، وإذا غشيكم الليل فأحيلوا الرماح كفة ـ محيطة بكم ـ ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة».

ـ قال الحسن بن الربيع:

«خرج فارس من المسلمين ملثّم، فقتل فارساً من العدو كان قد فعل بالمسلمين، فكبّر له المسلمون، فدخل في غمار الناس، ولم يعرفه أحد، فتتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه، فعرفته، وقلت: أخفيتَ نفسك مع هذا الفتح العظيم، الذي يسّره الله على يدك؟ فقال: الذي فعلت له وقاتلت من أجله لا يخفى عليه».

ـ كان حبيب بن مسلمة الفهري يشارك في غزو أعداء الإسلام، وكان يقود كثيراً من الحملات في هذا السبيل.

وذات يوم خرج إلى بعض غزواته، قالت له امرأته:

ـ إلى أين وفيم أنت ماضٍ؟

قال: في سبيل الله!

قالت: وأين موعدك؟

قال: سرادق الطاغية أو الجنة إن شاء الله تعالى!

قالت: إني لأرجو أن أسبقك إلى أي الموضعين كنت فيه.

فجاء فوجدها قبله في سرادق الطاغية تقاتل أعداء الإسلام.

* * *

النادي الشبابي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥
التاريخ بين الدراسة والتدوين	١١
أمتنا في العصر الحديث قرأت تاريخها مشوّهاً	٢٧
المستشرقون ودورهم في الإنصاف أو تزوير التاريخ	٤١
الطائفيون من الكتاب والمفكرين ودورهم في تزوير التاريخ	٦٧
المفكرون المنصفون من النصارى العرب	١٠٧
طائفة من الشبهات والمفتريات في تاريخنا عبر العصور	١٥٩
المنهجية السوية والروح الموضوعية تبرز صفحات تاريخنا المضيء وتنقذه من الافتراءات	١٨٧
الفهرس	٢١٣

* * *

النادي الشبابي